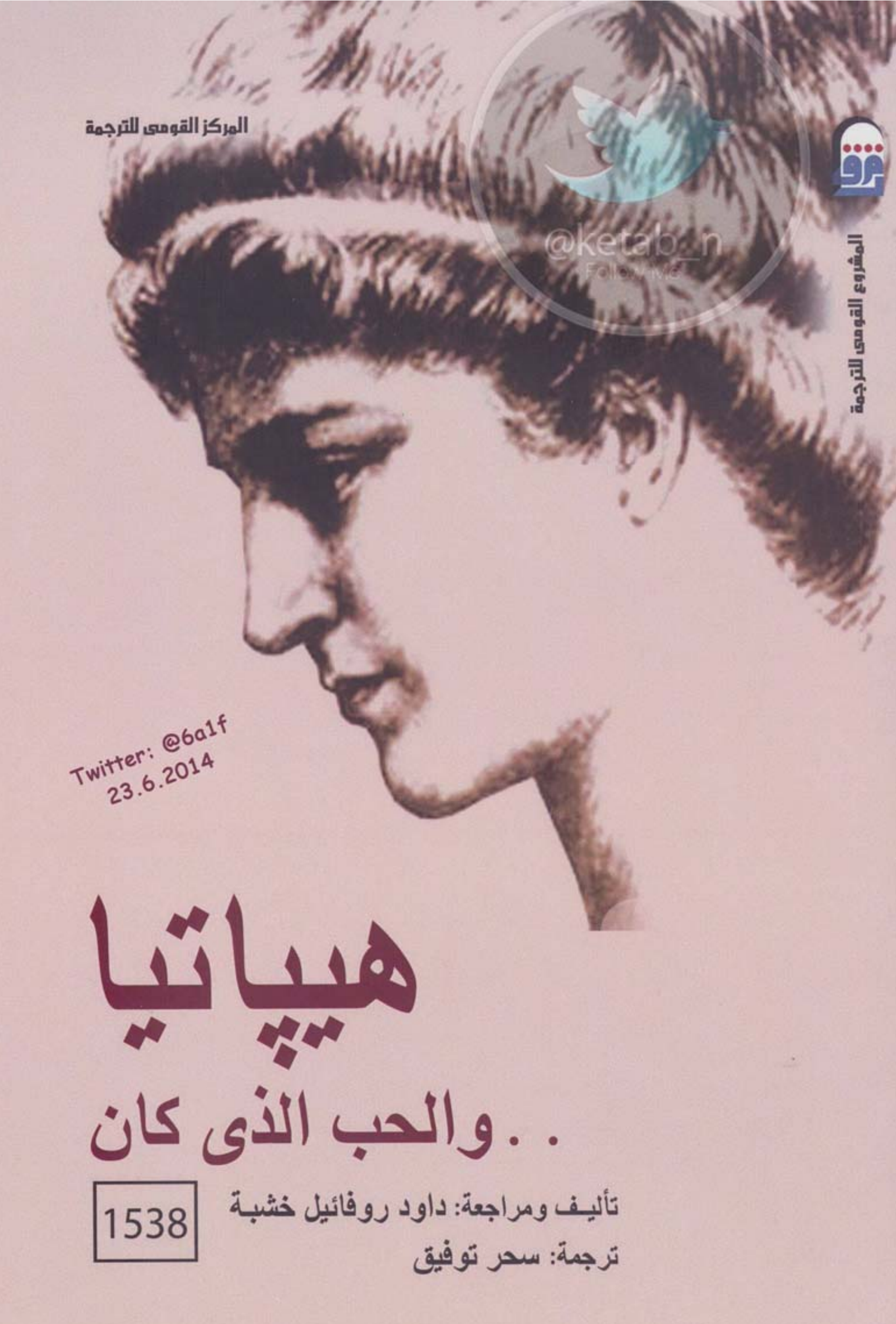

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
هيپاتيا
.. والحب الذى كان
1538
تأليف ومراجعة: داود روفائيل خشبة
ترجمة: سحر توفيق



تأليف ومراجعة : داود روفائيل خشبة

تـــرجمـــــــة : سحر توفيق



2010

هيپاتيا

..والحب الذى كان

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1538
- هيباتيا .. والحب الذى كان
- داوود روفائيل خشبة
- سحر توفيق
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

Hypatia's Lover

By D.R. Khashaba

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

خشبة ، داود روفائيل

هيباتيا ... والحب الذى كان / تأليف ومراجعة : داود روفائيل خشبة ؛

ترجمة : سحر توفيق .

ط ١ القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩

١٤٤ ص ، ٢٤ سم

١ - القصص الإنجليزية

(أ) توفيق ، سحر (مترجمة)

(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٥١٦٦/ ٢٠١٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 943 - 9

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

مقدمة وشكر

هذه رواية فى قالب قصصى للأيام الأخيرة من حياة هيپاتيا، والتى قادت إلى موتها الدموى أثناء فترة الصوم الكبير، ٤١٥ ميلادية. والقصة المأساوية يتبعها مجموعة من المقتطفات المتخيّلة من محاضرات هيپاتيا وأحاديثها.

والقليل المعروف عن حياة هيپاتيا وعملها موجود وسهل الوصول إليه على الإنترنت. (انظر صفحة المصادر الغنية التى يشرف عليها هوارد إيه. لاندمان Howard A. Landman: http://www.polyamory.org/~howard/Hypatia/). والمصدر الكلاسيكى هو حياة هيپاتيا التى كتبها سقراط سكولاستيكوس، والذى كان معاصرا لهيپاتيا، فى كتابه Ecclesiastical History. وتحتوى دائرة المعارف The Suda Lexicon، التى ترجع للقرن العاشر الميلادى، على باب طويل عن هيپاتيا، والذى يجمع مواده كما هو واضح بدون تمييز من مصادر متناقضة سابقة عليه، دون أى محاولة للتوفيق بينها. وفى خط القصة لم أتلاعب بأى من الحقائق المعروفة.

وأسطورة إيزيس وأوزيريس، التى أستفيد منها كثيرا، موجودة أيضا ويسهل الوصول إليها على الإنترنت بصيغ متعددة. (انظر على سبيل المثال المواقع التالية:

http://www.akhet.co.uk/isisosir.htm,

http://www.ctio.noao.edu/instruments/ir instruments/osiris2soar/tale.html,

http://www.egyptianmyths.net/mythisis.htm

أما الصيغة التى أقدمها هنا فهى لى.

وبالنسبة للاقتباسات التى استخدمتها من أفلوطين، فقد استخدمت الترجمة

الإنجليـــــزية لإلمر أوبريان (Elmer O'Brien, S.J., The Essential Plotinus, 1964).
والاستشهادات مذكورة فى نهاية الكتاب.

وأدين لـ ثيودور جومبرز بالإشارة إلى ثالوث زيوس وأثينا وأپولو فى هوميروس.
انظر Theodor Gomperz, The Greek Thinkers, Volume 1, translated by Laurie Magnus, 1901, pp. 106-7.

وأخيرا لابد أن أعترف بالانتحال، رغم أنه انتحال يمكن التجاوز عنه، حيث أننى لم أنتحل إلا من نفسى، فمحاضرات هيپاتيا حول المحاورة الأفلاطونية پارمنيدس Parmenides (تحت عنوان "من محاضرات هيپاتيا حول أسطورة إيزيس وأوزيريس"، لاحقا فى هذا الكتاب)، استخدمت فيها مادة الفصل الثامن من كتابى Plato: An Interpretation (2005).

وكما هو واضح من السطور السابقة، فإن الفلسفة التى نسبتها إلى هيپاتيا هى باعترافى فلسفتى الخاصة. وحيث أن أعمال هيپاتيا - شكرا للكنيسة - قد فقدناها بالكامل، فربما يُغفر لى بعض الاختلاق الذى يصبح غير ضار بعد هذا الاعتراف الصريح. وعلى أية حال، من المعروف أن فلسفة هيپاتيا كانت تنتمى إلى المدرسة الأفلاطونية / الأفلاطونية الجديدة، وأنا أصف فلسفتى الخاصة كصيغة من الأفلاطونية.

وإذا شعر أى أحد بالضيق من الطريقة التى صورت بها مأساة هيپاتيا، فليس لدىّ أىّ اعتذار ولا ندم. إن الذبح الوحشى لهيپاتيا جُرحٌ دامٍ فى ضمير البشرية، ولابد أن يظل يؤلم إذا لم نرد له أن يقيح ويسمم الجسم الإنسانى بكامله.

د. ر. خشبة

مدينة السادس من أكتوبر، مصر

سبتمبر 2006

هيپاتيا... والحب الذى كان

الإسكندرية، ٤١٥ ميلادية

واحد

لم تستَقلّ هيپاتيا مركبتها للذهاب إلى المدرسة، فنادرا ما كانت تستخدم عربتها الخاصة فى الرحلة إلى المدرسة أو العودة إلى البيت. كان ذلك، من ناحية، نوعا من الاهتمام بكريستوفروس، الحوذى العجوز الذى دخل فى خدمة العائلة يوم ولادتها - كما كان والداها يقولان لها؛ ومن ناحية أخرى لأنها كانت تستمتع بالسير إلى المدرسة. وحتى أثناء الموسم البارد بين شهرى طوبة وبرمهات، وفيما عدا الأيام التى يكون فيها الجو سيئا للغاية، كانت تستمتع بنزهتها اليومية. فى الصباح كانت تتمشى، متأملة أو تاركة نفسها للشعور بالرضا لمجرد أنها تتمتع بالحياة. وفى نهاية اليوم، كانت تترك أرض المدرسة محاطة بمجموعة من تلاميذها وتسير معهم متمهلة، تجيب على أسئلتهم، أو تستمع بسرور إليهم وهم يتجادلون فيما بينهم أو يعلقون على المحاضرة التى ألقتها عليهم قبل ذلك أثناء اليوم. وقد تقول ضاحكة لزملائها الأرسطيين: "أنا مشّاءة(*) أيضا، كما تعرفون، لكن فقط بالمعنى اللغوى الأصلى للكلمة".

كانت هيپاتيا تسير برشاقة، وكان النسيم البارد القادم من البحر المتوسط يرفع من الابتهاج الذى يجتاح كيانها كله. كانت فرِحة، فقد توصلت لتوها إلى فكرة رائعة لسلسلة محاضراتها الجديدة. وللحظة خطر ببالها، ليس ذكرى، ولكن لحظة عاشتها مرة أخرى أخذتها عشرين عاما فى الماضى، عندما كانت فى بداية عملها بالتدريس. فى ذلك الوقت، مع شعلة الشباب وقعت فى الحب، وعاشت أياما من السعادة قبل أن تنقلب التجربة إلى مرارة. أسرعت بطرد هذا التفكير من رأسها، فى الوقت الحاضر كان الامتلاء بالحماسة لفكرتها الوليدة لمحاضراتها القادمة هو ما يغمر روحها.

(*) Peripatetic : الكلمة تعنى "مشّاء". وجرى إطلاقها على مدرسة "أرسطوطاليس".

إن ما تنطوى عليه أسطورة إيزيس وأوزيريس من رؤية باطنية، وما تنطوى عليه فلسفة أفلاطون من رؤية ميتافيزيقية، ليس فقط فى محاورة پارمنيدس، كلتاهما تلقى الضوء على الأخرى. ومعا تعطيان لنا فلسفة غنية تدور حول الكينونة والصيرورة. الأسطورة، وفكر أفلاطون، وفكر أفلوطين، كلها تعبر بطرائق مختلفة عن نفس الرؤية. ويمكن أيضا أن نجد نفس الرؤية فى بعض الأدبيات المسيحية. والرؤية هى كل ما تدور حوله الفلسفة، وليس الصدق، الذى هو وهم خادع. عند هذه الفكرة، سمحت هيپاتيا لنفسها بغمزة عين تهنئ بها نفسها، فقد كان هذا أحد الموضوعات المحببة إليها، وكانت تستخدم هذا التعبير أحيانا لمشاكسة أصدقائها الأرسطيين.

فى طريقها مرت بالقرطاسى الذى اعتادت التعامل معه، ليڤى، رجل يهودى عجوز طيب، لم يكن فقط يمدها بأدوات الكتابة، ولكن أيضا من وقت لآخر كان يقدم لها مخطوطا قيما. أحيانا كانت تمازح الرجل العجوز قائلة: "لقد ورثتك من أبى، كما تعلم". عندما كان ثيون، والدها، رئيسا على موسيون الإسكندرية، كان هو أيضا يشترى أدواته الكتابية وبعض المخطوطات من حين لآخر من عند ليڤى.

وصلت هيپاتيا إلى المدرسة، واتجهت مباشرة إلى قاعة محاضراتها، حيث كانت تعلم أن تلاميذها قد اجتمعوا بالفعل. حيتهم، وردوا عليها التحية. طافت بعينيها فى الغرفة، كان كل تلاميذها المفضلين موجودين. وللحظات قليلة كانت صامتة، تبحث عن الكلمات المناسبة لمقاربة الموضوع.

تحدثت هيپاتيا بنعومة: "عندما وعدتكم فى المرة الأخيرة بأننا بعد ذلك سنحاول تأمل فلسفة الـ كينونة والـ صيرورة، كان فى ذهنى أخذ محاورة أفلاطون، الـ تيمايوس Timaeus، كأساس. لكن أعتقد أننى وجدت مقاربة أكثر خصوبة. لو وضعنا فى اعتبارنا أسطورتنا المصرية القديمة، أسطورة إيزيس وأوزيريس، مع محاورة أفلاطون الـ پارمنيدس، وحاولنا تفسير محاورة أفلاطون العميقة والتى تبدو ملغزة فى ظاهرها، من خلال الأسطورة، وبالعكس، نحاول تفسير الأسطورة رمزيا فى ضوء الـ پارمنيدس، مع تخصيب كل هذا بفكر أفلوطين، أعتقد أننا سوف نصل إلى نظرة منيرة على مسألة

الـ كينونة والـ صيرورة". عند هذه النقطة، لم تستطع مقاومة إغراء أن تلقى بسهم ساخر على أصدقائها الأرسطيين، فأضافت: "نظرة أكثر تنويرا مما يمكن أن نجده فى رسالة أرسطو حول النشوء والفناء".

"سوف أسعى لإظهار أنه فى الميثولوچيا القديمة قِدَمَ الدهر للنوع البشرى، الميثولوچيا الهندية، والفارسية، والعبرية، والمصرية، والإغريقية - يمكننا أن نجد ما يدل على رؤية ميتافيزيقية عميقة. وفى نيتى أيضا أن أقترح أن كل الرؤى الميتافيزيقية، صعودا حتى أعلى مستويات الفكر الفلسفى المجرد، لا يمكن التعبير عنها إلا من خلال الأسطورة. والأكثر من هذا، أؤكد أن الأسطورة، مهما كانت غنية أصلا فى الرؤية الميتافيزيقية أو الروحية، فإنها تتحول إلى خرافة قاتلة عندما يتم تجاهل طبيعتها الأسطورية، كما تم تجاهلها فى الديانات الرسمية المأسسة. والواقع أننى سوف أغامر بالقول بأن الدين يمكن تعريفه بأنه خرافة ممأسسة".

بعد وقفة قصيرة أخرى، وتلاميذها قد انقطعت أنفاسهم انبهارا، استمرت: "سوف نلقى نظرة أولا على الأسطورة القديمة فى شكلها التقليدى، ثم نناقش ما أسميه المستوى الأول من الرمزية، قبل الخوض فى مياه أعمق." وجالت هيپاتيا بعينيها فى أرجاء غرفة الدراسة، واستقرت على واحدة من الفتيات: "إيزيس، تحملين اسم الإلهة. لابد أنك سمعت وقرأت الأسطورة عشرات المرات. حدثينا كيف تسير باختصار".

استغرقت إيزيس هنيهة لتجمع أفكارها، وقالت: "أفترض أننى ينبغى أن أقدم القصة مجردة من أى تفسيرات". أجابت هيپاتيا: "أعطينا القصة مجردة فى البداية، ثم يمكنك تقديم تفسيرك. سوف نشترك جميعا فى استكشاف أى معنى يمكن أن نجده فى الأسطورة".

مرة أخرى كانت إيزيس صامتة للحظات. ثم تحدثت ببطء: "بالطبع، على مر الأجيال، تلقت الأسطورة الأصلية العديد من التضخيمات، وأعيدت فى صيغ مختلفة.

وقد يكون بعض زملائنا هنا يألفون الصيغة الهيلينية التى قدمها بلوتارخوس. سوف أحاول إعادة القصة كما كنت أسمعها من جدى وأنا طفلة صغيرة، لكنى مضطرة للقفز فوق أحداث كثيرة وترك فراغات كثيرة فى الحكاية. بالنسبة لجدى لم تكن أسطورة أو قصة، وإنما كانت رواية مقدسة. وأعتقد أنه بالنسبة لآبائنا الأقدمين، كانت مثل هذه الروايات تمنحهم صلة حميمة بحقائق باطنية عميقة. وعصرنا الذى يتميز بالشك..." - وحانت منها نظرة إلى صوفيا إلى يمينها قبل أن تضيف، "أو... ليس شديد الشك، عندما نرى وفرة من العقائد الدوجماتية الجديدة بيننا". كانت صوفيا واحدة من اثنتين من الطلبة المسيحيين فى الفصل الدراسى؛ كانت الأخرى هى مريم. أشاحت إيزيس بيدها معتذرة: "أنا آسفة. طُلب منى أن أروى الأصل الأسطورى المجرد دون تفسير، وها أنا أدخل فى التعليق". ابتسمت هيپاتيا: "لا عليك. فلماذا نحن هنا إن لم يكن، بتعبير أفلاطون الخالد، لكى نتبع رياح التفكير أينما تقودنا؟"

بدأت إيزيس الإلقاء بطريقة تحاكى إلقاء منشدى الملاحم:

قبل أن يكون الزمن

كان رع، وزوجته السماوية نوت

حملت نوت أربعة أبناء:

أوزيريس وإيزيس، ست ونفتيس

وعندما اعتزل رع ونوت فى السماوات العلى

حكم أوزيريس وأخته وزوجته إيزيس الأرض كلها؛

وكان هناك خير كثير، وكانت الحياة كلها مغمورة بالبركة

لكن ست قال: إن لدىّ مهمّة أوكلها لى أبى

لأن أبى أسمانى المُدمِّر؛

وقضى أبى بألا يكون أوزيريس وإيزيس بلا منافسة.

سعى ست لاستشارة أخته وزوجته نفتيس؛

وكانت نفتيس داهية، فابتدعت خطة ماكرة:

قالت: اصنع تابوتا مشغولا من خامات مدهشة،

واجعله يتفق تماما مع مقاسات أوزيريس

ثم ادعُ أخاك الملكى إلى وليمة ملكية

وفى القاعة التى تقام فيها الوليمة، ليكن الصندوق البديع معروضا،

وأعلن أنه سيكون هدية عليا منك

لمن يناسب مقاسات جسمه بالضبط.

وعندما يأتى دور جلالة أوزيريس ليجرب

أغلق الغطاء الثقيل على الملك بالداخل فجأة

وبسرعة دُقَّ مساميره واختمه بالرصاص الذائب،

ثم اعهد بالصندوق وبداخله أوزيريس

إلى مياه حابى، إله النيل

ليحمله إلى البحر الأخضر العظيم المفتوح .

وهكذا كان.

•

فى اللحظة التى تمّ فيها الفعل الشرير

الملكة الحكيمة إيزيس، فى غرفتها، رأت الهواء يتحول للون أحمر

وشعرت بطعنة رمح ملتهب ينغرز فى قلبها الرقيق.

أسرعت الربة إلى الخارج، قلبها يدق بعنف،

وحولت نفسها إلى طائر السنونو

وطارت نحو الجنوب إلى أبيدوس،

وهى تمسح الوادى على جانبى النيل بعينيها

لكنها لم ترَ علامة على وجود زوجها السماوى

عادت إلى الشمال، إلى طيبة

وفى طيبة، عادت إيزيس إلى الشكل الآدمى

وهناك أخبرها فلاح عجوز طيب

بأنه رأى صندوقا رائع الجمال تحمله مياه النيل إلى الشمال

فطارت إيزيس فى هذا الاتجاه.

عند رأس الدلتا توقفت ونزلت مرة أخرى،

وقد تحيرت أى فرع من النيل المتفرع تتبع

وأجاب أطفال صغار يلعبون عن تساؤلها

لقد رأوا الصندوق يطفو فى المجرى الذى على اليسار

وطار السنونو المقدس متابعا

وتوقفت حيث تلتقى المياه العذبة بالبحر

مرة أخرى دلّ الأطفال الصغار الربة على الطريق،

وحولت الربة طريقها الآن نحو بيبلوس

على شاطئ بيبلوس تجولت بلا هدى

حتى وقعت عيناها على ثلاث فتيات يستحممن فى البحر

عاريات خرجت الفتيات من بين الأمواج المتهامسة

وفى الحال، من خلال البراءة العفيفة لجمالهن العارى

عاشت إيزيس من جديد عناق أوزيريس فى عرسها

وفجأة أُلهمت بمكان رقاد حبيبها

خفق قلبها برقة؛

وظهرت للفتيات الثلاث؛

فجئن وجلسن على الرمال الذهبية تحت قدميها

مشطت شعر كل واحدة من الفتيات الثلاث.

وفى القصر لم تستطع الملكة عشتروت أن تتعرف على فتياتها

أدهشتها عيونهن المشرقة بالضوء

وتعجبت من العبق الذى ينبعث منهن

وروت الفتيات لملكتهن الحكاية العجيبة

واقتيدت الإلهة الجوالة إلى القصر.

بقلب ملتهب، سألتها الملكة عشتروت:

هل لك، أيتها المرأة الطيبة، أن تطببى أميرى المريض؟

بشفتيها لمست الربة جبين الأمير،

ومررت ثلاثة أصابع على قلب الأمير؛

وإذا بالصبى سليم وصحيح

عيناه اللامعتان ينبعث منهما الحب والفرحة

وامتلأ قلب الربة عطفا عليه:

سوف أمنحك الخلود.

فى هدأة الليل، حملت إيزيس الطفل النائم؛

وإلى العمود الذى يضم الصندوق أخذته.

وأمرت أن تشتعل نار هائلة،

وداخل اللهب وضعت الطفل النائم

وراحت تدور حول العمود طائرة فى شكل طائر السنونو

وراحت ترتل: احرقى أيتها النار المقدسة كل ما هو فان

لكن الملكة عشتروت جاءت باحثة عن طفلها

وصرخت فى فزع

وساد الصمت كل شىء

اختفت النار، اختفت الترتيلة، اختفى طائر السنونو

ورقد الطفل يتنفس بنعومة

وهكذا لن يكون خالدا أبدا

وظهرت الربة، وطلبت شيئا واحدا

فأُخرج التابوت من العمود

ومع تابوت حبيبها، أبحرت إيزيس

أبحرت من بيبلوس، عبر البحر، إلى النيل

مرة واحدة فتحت التابوت

واحتضنت الإله النائم

غمرته بدموعها وقبلاتها

ثم وضعته ليرقد.

لكن ست، عديم الرحمة

سرق الجسد، ومزق الإله قطعا،

وبعثر الإله فى كل مكان من الأرض

وعادت إيزيس تسعى من جديد.

وفى هذه المرة جاءت نفتيس لمساعدتها

معا، فى كل مكان بحثتا

وجمعتا جسد الإله قطعة قطعة

حتى أصبح الإله كُلاًّ مرة أخرى

ومرة أخرى احتضنت إيزيس أوزيريس،

وفى رحمها تشكل حورس.

واكتملت الشعائر الجنائزية المقدسة كلها

لأن رع قضى بأن أوزيريس سوف يكون مكانه بين الآلهة.

وتوقفت إيزيس: "إن رواية معارك حورس وست سوف تأخذ وقتا طويلا. هناك نقطتان، فى تقديرى، يمكن ملاحظتهما بالنسبة لهذه المعارك. أولا، يبدو لى أن مبدع أو مبدعى الأسطورة قصدوا ألا يكون ثمة اكتمال هنا، فالنزاع لانهائى على نحو قاطع. كل نصر لـ ست يقلبه حورس إلى نصر له، وكل انتصار لـ حورس يتبعه انقضاض جديد من قوى ست. هذه هى النقطة الأولى، والثانية، هى أنه من الواضح أن القصص المفصّلة للمعارك قد نمت على مر الزمن؛ أضاف الناس، جيلا بعد جيل، فصولا جديدة للرواية".

وهنا سكتت إيزيس، وسألتها هيپاتيا: "هل تريدين إضافة أى تعليق آخر؟"

"لا، لا أشعر أن لدى المزيد مما يستحق أن أضيفه فى الوقت الراهن".

"لقد قدمت إلقاء رائعا، إلقاء يساعدنا على استكشاف المغزى الرمزى والأبعاد الميتافيزيقية للأسطورة".

"من يريد أن يساهم بفكرة؟" جالت هيپاتيا بعينيها بين الفصل، وقالت: "نارمر"، ناظرة إلى فتى نحيف نوبى الملامح: "يبدو أن لديك ما تريد قوله". قال نارمر: "أعتقد أنه من المهم أن نفكر فى أنه بالنسبة لأسلافنا لم تكن الأسطورة أسطورة فى الأصل، ولا حتى رواية مقدسة كما قالت زميلتنا إيزيس أنها كانت بالنسبة لجدها. من المحتمل أنها كانت فى الأصل إحدى تمثيليات الأسرار المقدسة للخصوبة، يتم تمثيلها طقوسيا، ربما ليس كشعيرة سحرية لضمان خصوبة الأرض، وإنما كتقرُّب من القوى التى تمنح الخصب والوفرة للأرض والحيوان والإنسان، وكوسيلة لحفظ بقاء الشعور التقى بأننا مدينون لأمنا الأرض وللمبادئ الأولية النشطة الكامنة فى التربة والماء والهواء".

توقف نارمر، ثم قال أبولونيوس: "ما يقوله نارمر قد يكون صحيحا بالنسبة للميلاد الأصلى للأسطورة. لكنى أظن أنه إن آجلا أو عاجلا كان التطور الإضافى للأسطورة يعكس، سواء عمدا أو بغير عمد، الآراء التخمينية التى بدأت تتشكل لدى أسلافنا عن أنفسهم أمام سرّ الحياة والموت، النشوء والفناء، الكون الكبير المنظم، والكون الصغير الذى يتمرّد على كل نظام. إن المبادئ الأولية النشطة الكامنة فى التربة والماء والهواء التى تحدث عنها نارمر ربما كانت فى البداية محسوسة، مجرّبة، باعتبارها كائنة ليس فقط فى الأشياء ولكن أيضا داخل الكائن البشرى. ولكن بمرور الوقت لم يعد الأمر مجرد الإحساس بهذه المبادئ الأولية أو تجربتها؛ لقد أُخضِعَتْ للفكر؛ وتحولَتْ إلى مفاهيم ومعتقدات ونظريات. وهنا، كما تؤكدين لنا دائما، يا معلمتنا المحبوبة، نلتقى بمجد الإنسانية ومكمن الخطر عليها. إننا لا يمكن أن نكون بشرا حقا إلا بالفكر؛ لكن مع الفكر أيضا يأتى الخطأ والخرافة والتعصب الأعمى".

قال رمسيس: "فى أحد الفصول التى لم تذكرها إيزيس، عندما ألقى رع لعنة على نوت بحرمانها من أن تلد فى أى شهر من شهور العام، تمكن تحوت، إله الحكمة والتعلم، من هزيمة خونسو، إله القمر، فى لعبة، فكسب منه ما يكفى من نوره ليضيف خمسة أيام إلى أيام السنة. هذه الأيام الخمسة لم تكن خاضعة للعنة التى فرضها رع، وهكذا تمكنت نوت من أن تلد أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس. أذكر هذا ليس لمجرد ملء ثغرة فى رواية زميلتنا؛ فنحن نعرف أن ما فى الأسطورة من تشعبات وتنويعات لا نهاية لها. إننى أذكر هذا لأقترح أن الأسطورة فى جانب منها هى سجل للتاريخ المصرى، فالأيام الخمسة التى أضافها تحوت، رب الحكمة والتعلم، إلى السنة، تشير بلا لبس إلى تأسيس التقويم الشمسى من اثنى عشر شهرا كل شهر ثلاثون يوما، بالإضافة إلى أيام النسيىء أو "الشهر القصير" التى أدخلت بين شهر مسرى وشهر توت التالى له. ويمكن أيضا أن نرى فى الأسطورة تسجيلا لتأليه ملوك مصر باعتبارهم أبناء رع أو التجسيد الحى لأوزيريس".

وأخذ طلبة آخرون أدوارهم للتحدث، ثم قالت هيپاتيا: "حسنا، فى محاضرتى القادمة، سوف أبدأ فى محاولة فعل ما وعدت به: أن نحاول نسج الأسطورة بفكر أفلاطون، خاصة ما يختص بمحاورته الـ پارمنيدس، ومع فكر أفلوطين، وسوف نرى ما سوف يقودنا هذا إليه".

اثنان

انتظر حُتب عند البوابة ليلتقى بإيزيس فى طريقها إلى الخارج. كانت علاقتهما حديث كل الطلبة. جاءت إيزيس وسارا جنبا إلى جنب. ولأن كليهما خجول بطبيعته، كان الغزل قليلاً عادة فى حديثهما. كانا يناقشان محاضرات هيپاتيا، ويتحدثان عن دراساتهما وآمالهما للمستقبل، ويتبادلان القليل من العبارات حول ما يجرى فى عائلتها أو عائلته، أو يسيران متجاورين فى صمت، سعيدين لمجرد الإحساس بوجود كل منهما على مقربة من الآخر.

أما اليوم، فقد كانت إيزيس تفكر فى شىء ما. بينما كان حتب يعلق على محاضرة هيپاتيا فى ذلك الصباح، لم تضف إيزيس إلا كلمات قليلة هنا أو هناك؛ كان من الواضح أنها غير راغبة فى التوسع فى الحديث، وعند أول وقفة تتيح لها فرصة الاستطراد، قالت: "أرى أنك فى الفترة الأخيرة تعطى الكثير من الانتباه لصوفيا".

لم يكن حتب يتوقع هذا. "أوه، من فضلك يا إيزيس، لا تكونى سخيفة. إنك تعرفين كم أحبك. وتعرفين أنه لا توجد فتاة أخرى فى العالم يمكن أن تعنى ما تعنينه أنت بالنسبة لى".

"لا تقل لى أنك تتحدث مع صوفيا كما تتحدث مع أى من زملائنا الآخرين. إنك تسعى إليها، ولا يبدو أن أحاديثكما تصل إلى نهاية. وأنت تعرف، إنها جميلة إلى حد ما".

"أنت سخيفة، يا عزيزتى إيزيس. وعلى خطأ تماما. إننى لا أهتم بصوفيا باعتبارها إمرأة. لكن فى الفترة الأخيرة كنت مهتما بتعلم المزيد عن المسيحية. إننى أجد الكثير فى الفكر المسيحى مثيرا للفضول. وقد أعارتنى صوفيا بعض الكتب، وهى تشرح لى معتقداتهم وشعائرهم".

شعرت إيزيس ببعض الراحة لهذا التفسير، لكنها استمرت رغم ذلك: "إن الكتب المسيحية فى الواقع متاحة فى كل مكان. وأنت لا تتكلم بنفس الطريقة مع مريم. إنها مسيحية أيضا".

"لقد تحدثت مع مريم. لكن مريم لا يبدو أنها تأخذ المسيحية بجدية. عندما أسألها عن نقطة ما فى العقيدة المسيحية، بدلا من أن تشرح لى ماذا يعتقد المسيحيون، تحدثنى عما تعتقده هى نفسها. وهو أمر يثير الاهتمام، ولكنه ليس ما أسعى إليه".

ثم، مداعبا إيزيس، أضاف مبتسما: "إن كان الأمر يتعلق بالشكل، فأنا أجد مريم أكثر جاذبية من صوفيا". ولم تملك إيزيس نفسها من الابتسام.

شعرت إيزيس بأنها راضية، فى اللحظة الراهنة. عرفت أن حتب يتحدث بصدق فى قوله أنه لا توجد فتاة أخرى تنافسها فى قلبه، ولم تكن تعلم أن المنافسة التى سوف تخنق حبهما لم تكن لتأتى من صوفيا أو مريم أو أى امرأة أخرى، وإنما من الكنيسة.

ثلاثة

"دعونى أغامر بالدخول إلى تناولى لأسطورة إيزيس وأوزيريس. ولكن فى البداية أريد أن أقول أن التعليقات التى سمعتها منكم - وأعنى كل من علق منكم على الأسطورة - قد أمتعتنى للغاية وأكدت دواعى فخرى بكم. لقد كانت تعليقاتكم تدل على إدراك وفهم عميقين." هكذا تحدثت هيپاتيا بارتعاشة عاطفة أصيلة فى صوتها. واستمرت قائلة: "سوف أحاول الآن ترميز عناصر معينة من أسطورة إيزيس وأوزيريس على طريقة فيلون السكندرى فى ترميز أساطير التراث العبرى. وأعرف أن عزيزتنا حنّة هنا قد قامت بدراسة خاصة عن فيلون، ومن ثم يمكنها أن تكون حكما إن كان ترميزى يمكن مقارنته مع ترميز فيلون".

قابلت حنّة هذه الإشارة بابتسامة خجلة. كانت حنّة وأخوها باروخ هما التلميذان اليهوديان فى درس هيپاتيا الفلسفى، وكانا يحضران أيضا محاضراتها الرياضية والفلكية.

"إن الميثولوچيا البدائية هى المجهود الأوَّلى للإنسان لإضفاء معقولية على الفوضى الأولية لمعطيات الظواهر الطبيعية. سوف أحاول أن أبيِّن أن التأملات الفلسفية لم تأت فقط من رحم الميثولوچيا القديمة، بل إنه فى النهاية تبلغ الفلسفة درجة النضج عندما تتحقق من أن أقصى ما تبلغه هو تجسيد رؤاها عن الحقيقة فى أساطير لا تزعم الثبات أو التمام".

توقفت هيپاتيا للحظة فى تأمل. كانت هناك ملحوظة تمهيدية ينبغى أن تلقيها. "فى تفسيرى الميتافيزيقى للأسطورة سوف ألجأ للاستعانة بمفاهيم وأفكار لابد أنها مألوفة لمعظمكم من المحاضرات السابقة، ولكنها قد لا تكون مفهومة بوضوح لآخرين،

خاصة ونحن بيننا زائرون نرحب بهم ويشرفوننى بحضورهم. وأقول لهم ولكم جميعا، تحمّلوا معى. وسوف نعود مرارا وتكرارا إلى تطوير وتوضيح هذه المفاهيم والأفكار فى محاضرات أخرى فى المستقبل".

وبعد وقفة أخرى، أكملت هيپاتيا: "دعونا كخطوة أولى نوزع أدوار الشخصيات الرئيسية للأسطورة. رع، رغم أنه إله الشمس، إلا أنه ليس محصورا فى ذلك الدور 'الطبيعى'، ولكن من الواضح أنه يقوم بدور كبير الآلهة، الإله الأعلى. وفى ترميزنا لن نكون مخطئين إذا اعتبرنا أن رع يساوى الـ حقيقة.

"ثم دعونا ننظر إلى نوت، رفيقة رع وزوجته، باعتبارها تمثل الـ وجود المجرد، المعادل لـ 'وعاء' أفلاطون، والذى يسميه أفلاطون أيضا بالرحم. فمن رحم نوت يخرج إلى الوجود أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس. ثم سأعتبر أن أوزيريس يمثل الخير ويمثل الإبداع. وسوف أعتبر إيزيس فى البداية رمزا للحكمة، مثل الربة أثينا الإغريقية، والربة مينرڤا الرومانية، فلا ينبغى أبدا أن ننسى أن تلك السمات الأساسية للحقيقة أدركتها الروح الإنسانية بالضرورة فى كل مكان ومن ثم فقد جُسِّدت بأشكال مختلفة.

"أما ست، فأحتفظ له بدور ميتافيزيقى عظيم الأهمية، لأننى أعتبر ست ممثلا لمبدأ الـ عدم، وهو الجذر والشرط الذى لا غنى عنه لكل الوجود المتناهى. ست ليس هو الشر، ولكنه العدم المتأصل فى كل محدودية، وخاصية التدمير لديه هى الـ زوال الذى يلد كل صيرورة. ست هو الـ موت الذى هو ليس إلا الوجه الآخر للتجدد وميلاد الحياة. ولهذا فإن ست فى الأسطورة يدمر أوزيريس بصورة دوريّة ليجعله يأتى مجددا إلى الحياة. وربما لا يخرج بنا عن السياق هنا أن نشير إلى حُجة التحوّل الدورى فى محاورة فايدون لأفلاطون(*).

(*) Plato's phaedo : من أهم محاورات أفلاطون، والتى تصف سقراط، وتقوم على رواية أحد تلاميذ سقراط للحظاته الأخيرة، والذى يسمى فايدون، وسميت المحاورة باسمه .

أما نفتيس، فلها عندى دور ميتافيزيقى أساسى، لكن فى هذه المرحلة، سوف أصورّها فقط باعتبارها 'الفكر'، البراعة والابتكار، القدرة المهارية فى مقابل الحكمة الصريحة البريئة لإيزيس. ودعونى أكمل بسرعة توزيع الأدوار قبل الدخول فى تطوير خطوط معينة لتفسيرى الأليجورى - الترميزى للأسطورة. حورس، الابن الذى نتج عن لقاء الحب، هو الـ صيرورة. حابى، إله النيل، هو مجرى الـ زمن. وتحوت الذكى يمثل العلم والتعلم. وسوف تتذكرون أن أفلاطون فى الـ فايدروس(*) ينسب إليه اختراع الكتابة، ولا يفوت أفلاطون أن يؤنبه بشدة لأنه بهذا الاختراع أغوانا بإهمال الحوار الحى".

(*) phaedrus : إحدى محاورات أفلاطون، تدور بين سقراط وفايدروس، وتتناول الحب، فى إطار من مناقشة علم البلاغة .

أربعة

كانت أرتميس تسير متمهلة مع أخيها، فيليپوس، فى أراضى المدرسة، عندما رآهما إقليدس، الذى كان يقرأ جالسا تحت شجرة. فوثب واقفا، وسار بخطوات سريعة نحوهما، ونادى: "فيليپوس!". تمهل الأخوان فى خطوهما، الذى كان متمهلا بالفعل، حتى لحق بهما إقليدس. وسار الثلاثة معا لدقائق يتبادلون بعض الحديث. لم يشأ فيليپوس أن يكون حائلا بينهما. فقال: "سوف أجلس هنا لأقرأ قليلا". كان يسعده أن يرى أن أرتميس وإقليدس يهتمان كثيرا ببعضهما البعض. وما كان يمكن له أن يجد لأخته العزيزة زوجا أفضل من أعز أصدقائه.

ولم يكن الأمر أن المحبيْن كانا يريانه حائلا بينهما. فى الواقع أنهما كانا يتغازلان بشكل أكثر صراحة عندما يكون فيليپوس حاضرا، وكأن وجوده يمثل منطقة أمان يستطيعان الحركة بحرية أكثر فيها. أما عندما يكونان وحدهما، فقد كانت أرتميس أكثر تحفظا بشكل ما، تخشى اندفاع عواطفها. وهكذا، عندما يكونان وحدهما، كانا يتحدثان فى الفلسفة، أو يتشاحنان حول القضايا الفلسفية. أحيانا كان إقليدس يقول لها مداعبا: "تعرفين أننى على سجيتى مع فيليپوس أكثر مما أكون معك. لو كان هو أختك وليس أخاك، ربما وقعت فى حبها هى". ضحكت أرتميس قائلة: "خطأ، إنك لست مثل أخى - أعنى فكريا. فيليپوس أبيقورى أصيل. فهو يقدِّر قبل كل شىء سلام العقل وراحته. وهو يسعى إلى السكينة من خلال التحرر من الهموم الحياتية والقيم الوهمية. لكنك أكثر ميلا لطريق أريستيپوس، فأنت تسعى للمتعة الإيجابية، وتعتقد أن الحياة يمكن أن تقدم من المتعة ما يربو على ما تقدّمه من الألم. وهذا وهم".

عندما انسحب فيليبوس، وتركهما وحدهما، سارا لفترة فى رضا صامت، مستمتعين بدفء تقاربهما الجسدى. ثم جذب إقليدس الكتاب الذى كانت أرتميس تضمه إلى صدرها. ونظر فيه، ثم تساءل متظاهرا بالفزع: "أوه، زيوس سوتر! المنقذ! التاسوعات مرة أخرى! ألا تشبعين من أفلوطين أبدا؟" أخذت أرتميس الكتاب من يده، قائلة: "دعنى أقرأ لك فقرة كان لها تأثير كبير فى نفسى. تعال، دعنا نجلس هنا".

قرأت أرتميس: "الأبدان تمنعها أبدانها من الاتحاد، لكن ما لا جسد له لا تمسكه هذه الحدود الجسدية. إن ما يفصل الكائنات اللابدنية الواحد عن الآخر ليس المسافة المكانية، بل اختلافاتها وتنوعاتها: فعندما لا يكون هناك فرق بينها، تكون موجودة بشكل متبادل".

إقليدس: "جميل. لكن أنت وأنا لسنا بلا جسد. حتى فى جانبنا الروحى، حتى على المستوى الروحانى، حيث أننا محدودان، فردان متمايزان، فإن هذا يشكل تنوعا يكيّف بشكل ما 'وجودنا المتبادل'. أنت تعرفين أننا نادرا ما نصل إلى اتفاق كامل فى مناقشاتنا الفلسفية".

أرتميس: "ومع ذلك، فإننى أقدّر موقفك وأنت تقدّر موقفى. إننا نستمتع بمناقشاتنا حتى عندما، أو على الأصح خصوصا عندما تكون..." ـ أثناء تعديلها لكلمات عبارتها، لمعت عيناها بمكر ـ "عندما ترفض بعناد أن تعترف بقوة حججى وبراهينى. حتى فى هذا الوقت فإننا نشعر أن تبادل الأفكار بيننا يثرينا".

إقليدس: "حبيبتى، إنك تتجنبين الموضوع الأساسى. إنك تعرفين ما يدور بعقلى. فنحن لسنا بلا جسدين. إننا بحاجة إلى تبادلنا الجسدى بقدر احتياجنا إلى تبادلنا الروحى. إن الاتحاد الجسدى عندما يُستلهم من الحب، من الاهتمام بالآخر، يكون روحانيا".

أرتميس: "إننى أتفق مع هذا مبدئيا؛ وأنت تعرف ذلك. لكننا لسنا وحدنا فى العالم. إننا جزء من المجتمع. ولا نستطيع أن نتخطى المعايير الاجتماعية. فبفعل ذلك نرتكب خطأ ضد النظام الاجتماعى".

إقليدس: "أنا لا أريد أن نفعل شيئا ضد المعايير الاجتماعية. إننى أريد أن نتزوج وننجب أطفالا. ولكن فى الوقت الراهن...".

كانا قد خاضا هذه المناقشة مرات عديدة من قبل، وظل الموضوع معلقا. أعطته أرتميس قبلة دافئة حانية على خده، وقالت: "هيا بنا. ستتوجه هيپاتيا إلى قاعة المحاضرة فى أى لحظة الآن".

ترك إقليدس كف يده مستريحة على خدها للحظة قبل أن يتحرك قائما ويقول: "هيا بنا".

خمسة

بعد أن أكملت التوزيع التمهيدى للأدوار بين شخصيات الدراما السماوية، ظلت هيپاتيا صامتة بعض الوقت، غارقة فى التفكير، قبل أن تكمل: "قلت فيما قبل أننى أعتبر أن إيزيس تمثل الـ حكمة. وأراها أيضا تمثل مبدأ الـ تكامل. تجمع إيزيس شظايا جسد أوزيريس قطعة بقطعة. فلن يكون أوزيريس حيا إلا عندما تكتمل القطع لتشكل كُلاً متكاملا. إن أى أفلاطونى سوف يرى فى هذا فكرة الـ واحد والـ متعدد: فقط الـ واحد، فقط الـ كلّ، هو الحقيقى؛ الـ واحد النهائى، الـ كُلّ النهائى، هو الـ حقيقة النهائية، لكن حتى على مستوى أدنى، فقط ما هو واحد وكُلّ، يشارك فى الحقيقة بقدر ما يكون واحدا وكُلاً؛ أيضا، فقط كل ما هو واحد وكُلّ، يكون معقولا بقدر ما يكون واحدا وكُلاً. هذه هى الرؤية التى نجدها فى كلمات أفلاطون فى الـ جمهورية: "ذلك الذى يرى الأشياء ككُلّ يكون فلسفيا، ومن لا يراها كذلك فليس كذلك". وأيضا، بينما الـ واحد يمكن فقط أن يوجد فى المتعدد، فإن المتعدد ليست له حقيقة بدون الـ واحد. أنتم تعرفون أننى كنت دائما أطرح هذه النظرة، وهى نظرة سوف أتناولها مرارا وتكرارا لتطويرها.

"إيزيس وأوزيريس أخ وأخت، زوجة وزوج. وكلاهما له طبيعة مزدوجة، طبيعة إلهية وبشرية. نرى إيزيس وقد تحولت إلى شكل روحانى، ونراها تتجسد فى طائر السنونو، وتطير بعيدا بحثا عن أوزيريس، ومرة أخرى فى مسار طيرانها تنزل إلى الأرض فى شكل بشرى. وخلال الأسطورة كلها، نرى كلا من إيزيس وأوزيريس يجمعان بين القدرة الإلهية والهشاشة البشرية. دعونى فقط أعلق بشكل عابر أن

العقيدة المسيحية الخاصة بالطبيعة المزدوجة للمسيح ليست بدعة، ولكنها تقليد عتيق يضرب فى ماض أبعد مما يمكن أن تصل إليه الذاكرة البشرية. إن ملوك مصر كانوا آلهة وبشرا، وكذلك كان أبطال الهيلينيين، فهم أيضا أبناء الآلهة. والحق أن من الصعب أن نجد حضارة قديمة لم تُعرف فيها هذه الفكرة. ومرة أخرى، يمكن أن نقول أن إيزيس وأوزيريس، اللذين هما فى وقت واحد أخت وأخ، زوجة وزوج، يمثلان الاتحاد بين ما هو إلهى وما هو فان فى كل الكائنات الفانية، ازدواجية الحقيقة والوجود فى كل ما هو واقعى. وأتذكر هنا اعتراضات پارمنيدس فى الـ پارمنيدس على فصل الـ صُوَر عن تمثيلاتها؛ لكننى لابد أن أقاوم إغواء الدخول إلى ذلك الاستطراد الذى سيأخذنا بعيدا عن موضوعنا الراهن".

هزت رأسها، ثم عادت إلى موضوعها الأساسى. "فى توزيعى التمهيدى للأدوار، مررت بعجالة على دور نفتيس، ليس إهمالا، ولكن لأننى أردت أن أحملها بالكثير الذى يمكن الظن بأنه بعيد الاحتمال. نفتيس هى أخت ست وزوجته، واحدة من الثنائى الشرير. وهى بارعة وماكرة. وفى صيغة الأسطورة التى روتها لنا زميلتنا إيزيس - والتى أعترف أنها كانت جديدة بالنسبة لى - نفتيس هى صاحبة فكرة خدعة التابوت. بالنسبة لى، تمثل نفتيس المعرفة الموضوعية والفكر المحدد فى مقابل الرؤية الذاتية والنور الداخلى لحكمة إيزيس. فمثل الشخص فى أمثولة الكهف الرمزية لأفلاطون الذى رأى نور الشمس ولم يعد قادرا بعد ذلك على منافسة ساكنى الكهف، فإن إيزيس تجد نفسها عاجزة وتدعو أختها للمساعدة. وتلحق نفتيس بأختها، تاركة زوجها الشرير ست. فالمعرفة، المعرفة الموضوعية، التى هى المعرفة بما هو محدد ومعين، تنطوى فى أساسها على العدم، حيث أن تعرف يعنى أن تستطيع التمييز: ما هو "هذا"، يتناقض فى تعريفه مع ما هو "ليس هذا"؛ وما هو "هكذا"، يتناقض - فى تعريفه - مع ما هو "ليس هكذا". أيضا، أن تعرف، وبذلك أن تستطيع التمييز، هو أن تجزّئ التجربة المباشرة التى هى كل. لكن أن تفهم هو أن تنقذ كُليّة الـ كلّ المجزّأ،

المتشرذم. ومن هنا، فإن نفتيس لابد لها أن تلحق بإيزيس لاستعادة الكُلّيّة التى هى شرط المعقولية".

توقفت هيپاتيا لبرهة، ثم تحدثت ببطء وكأنما هى مصممة على أن تصل بكل كلمة مما تقول إلى غايتها: "مرة أخرى ينبغى أن أؤكد على أنه فى تقديم هذه الأفكار، لا أقصد على الإطلاق أن أوحى - ولا أريد أحدا أن يتخيل أننى أريد أن أوحى - بأن مبدعى الأسطورة القديمة كانت لديهم مثل هذه الأفكار، أو أنهم قصدوا نقل هذه الأفكار. إن قصدى هو أن أوحى بأنه فى ارتجافات واشتياقات حياتنا الداخلية، فى عطشنا السرى للفهم، يبدو أننا نتبين نماذج وصورا تجلب هبة المعقولية المريحة. إن البشر يشكلون تلك النماذج والصور بمختلف أشكال التقديم والعرض. ولن يتمكن أى عرض محدد أبدا من أن يكون قطعيا ـ لن يتوقف أبدا مخاض الروح الخلاقة إلا إذا توقف كل العقل الفاعل الحى. إن صانع الأساطير يبدع آلهة، والفيلسوف يبدع مفاهيم. ويرى الفيلسوف مفاهيمه كملامح أصيلة من الـ حقيقة النهائية، والتى لا يمكن أن تستهلك فى أى صياغة محددة للفكر. وهكذا فإن الفلسفة، الفلسفة الحية، هى ظمأ للفهم لا يرتوى. وفى ظمئنا المستمر للفهم يمكن أن نعيش بعقلانية. لا قدّر الله أن يرتوى هذا الظمأ أبدا!"

ببطء، دارت هيپاتيا بنظراتها فى قاعة الدرس. كانت الكلمات التى قالتها لتوها تحمل الرسالة التى كان جُلّ همها أن تنقلها لطلابها. واستمرت تقول: "فى إحدى صيغ الأسطورة، هناك قطعة واحدة من أوزيريس لم تستطع إيزيس أن تستعيدها. دعونى ألجأ لتأويل هذا فى ضوء فلسفتى كما يلى: ليس هناك كلُ فعلى يمكن أن يكون مكتملا؛ إن كل وجود فعلى محدد هو ناقص، جزئى؛ حتى الكون ككل هو نسبى، لأن فعليته هى فى الأساس زائلة ولا يمكن أن تحمل الأزل فى إطارها الزمنى؛ لكنها يمكن فقط أن تشارك فى الأزل بألا تتوقف عن تجاوز إطارها الزمنى باستمرار. ومن هنا فإن الحلم العقيم بالخلود الشخصى، هو وهم وخيال".

ستة

على الدرجات المؤدية إلى قاعة المحاضرات، جلس مينا وزوسر، منهمكين فى الحديث.

قال زوسر: "تأتى قيمة آلهتنا بقدر ما نصوغهم به من مادة. عندما يصنع البشر إلههم من خوفهم فى مواجهة القوى الضارية للطبيعة، يكون لديهم إله مخيف؛ وعندما يصنعون إلههم من حيرتهم أمام غوامض العالم وغوامض الحياة، يكون لديهم إله بارع، عالم بكل شىء؛ وعندما يصنعونه نتيجة عرفانهم بالأشياء الطيبة التى يتمتعون بها، يكون لديهم إله كريم، لكن من الممكن أن يكون أيضا إلها متقلب الأهواء. وعندما نستمد فكرتنا عن الإله من ينبوع أفضل ما فينا من صفات، فإن إلهنا يكون توكيدا بأن أصْل الأشياء لابد أن يكون مبدأ عاقلا، محبا، خلاقا. هذا هو الإله الذى لا يطلب عبادة، ولا يعِد بجائزة، ولا يفرض عقابا".

لم يستطع حُتب، وهو يمر بهما، أن يمنع نفسه من سماع جزء من حديثهما.

كان زوسر يقول: "الله هو فكرتى، أنا أخلق الله، وبخلقى للإله أصبح أنا إلهيا".

سأل مينا: "وماذا لو خلقت إلها طاغية، منتقما، قاسيا؟"

قال زوسر: "من فساد ذاتى أخلق مثل هذا الإله الفاسد. من آلهتهم تعرفونهم".

لم يشعر حتب أبدا بالارتياح لهذين الشخصين. لم يُظهر أى منهما أى تقوى فى التحدث عن الآلهة أو الله. وشعر أن نزعتهما الشكيّة لم تكن موقفا فكريا، أداة عقلية لفحص الآراء، ولكنها تعبير عن طبيعة شريرة متأصلة. وكان يشعر بالاستغراب لأن

هيپاتيا كان يبدو أنها توليهما انتباها خاصا، وكأنها ترى فيهما مستقبلا واعدا. والواقع أنه بدأ يشعر - رغم أنه ما كان ليعترف بهذا بصراحة - أن تفكير هيپاتيا ... حسنا، ليس على حق. خطا إلى قاعة المحاضرات بروح غائمة.

سبعة

تحدثت هيپاتيا، مستكملة محاضرتها: "قيل لنا أن إيزيس صنعت عضوا شبيها بالعضو الناقص عن طريق السحر لكي يصبح أوزيريس مكتملا. مرة أخرى دعوني أقدم تفسيرى الميتافيزيقي، ومرة أخرى أؤكد أننى لا أزعم الكشف عن الغرض الأصلى أو المعنى الحقيقى الذى كان يقصده صانع الأسطورة.

"استبدلت إيزيس العضو الناقص بشبيه. والعضو ظاهرى التماثل يمثل، فى مفاهيم فلسفتي، الزيف الذى لا مهرب منه، التناقض المتأصل فى كل صيغة محددة من الفكر. وهذه هى المسلَّمة المتلقاة دون تمحيص، والتى ينبغى، فى الـ ديالكتيك الأفلاطونى، تدميرها باستمرار. وإذا قلنا إن العضو الناقص هو عضو الإنجاب، فإن لاحقيقيته يمكن أن تكون بمثابة رمز للوهم، والخواء، وسرعة الزوال فى كل ما يصير.

"دعونى ألخص حصيلة قراءتى الميتافيزيقية للأسطورة كما يلى: إن الحياة البشرية لا يمكن أن تقوم على قدرة أوزيريس وحده. لابد أن يدمر ست تلك القدرة. وحكمة إيزيس بدون مساعدة لا يمكن أن تمنح حياة جديدة لتلك القدرة. لابد أن تلجأ إيزيس لعون قوة نفتيس الأولية التى لا يُسبر غورها، لتعطى مادة للشكل الشبحى لجسد أوزيريس بعد جمعه. وعندئذ يولد حورس - شخص حى، جسم وروح، طفل الأزل الذى ولد داخل الزمن، جذره فى الكمال لكن وجوده غير كامل. ولكن أيضا، لا يمكن أن تقوم الحياة البشرية على القوة الخام لنفتيس وحدها. فالطاقة غير المحدودة لنفتيس هى اللامتناهى اللاعقلى، الفوضى الأولية الـ أناكْسَجورية(*)، الامتداد بلا حدود حيث

(*) Anaxagorean، نسْبة إلى Anaxagoras أناكْسَجوراس: (تقريبا ٥٠٠ق.م – ٤٢٨ق.م) فيلسوف يونانى، كان سابقا على سقراط، واشتهر بمفهومه الكونى عن العقل، القدرة المنظمة. قال بأنه لا يوجد شىء من العدم. وقال إن كل شىء كان فى البداية متناهى الصغر، ولكن فى حالة من الفوضى المشوشة والهلامية.

كل الأشياء تختلط معا - اللامحدّد فى محاورة الـ فيليبوس لأفلاطون(*)، تلك الطاقة غير المحدودة لنفتيس لا يصبح لها معنى إلا عندما يتم تنظيمها وتصبح محكومة بالصور المضيئة لأوزيريس، وتمنحها عدمية ست تميزا وخصوصية. ومع أفلاطون فى الـ صوفيست(**)، نجد أنه من الضرورى أن نُدخل اللاوجود لكى نقرّر عن أى شىء أنه هكذا، لنقيمه كشىء محدد، مخصص، متناه، بمعزل عن كل ما هو ليس هكذا".

عادت هيپاتيا الآن إلى التحدث ببطء بذلك الأسلوب التحذيرى الحاسم الذى استخدمته من قبل: "مرة أخرى، أؤكد - وأعتقد أنه من الضرورى ألا يغيب هذا عن نظرنا - أننى كنت أقرأ فى الأسطورة فلسفتى الخاصة، صيغتى الخاصة للأفلاطونية. وسوف يكون من الجنون - أو الغباء، وهو أسوأ كثيرا من الجنون - أن أدعى أننى قد كشفت، أو حاولت أن أكشف الهدف أو المغزى من وراء الأسطورة. فقد كان هذا هو خطأ الترميزيين القدامى لأعمال هوميروس، مثل ديوچين من أپولونيا **Diogenes of Apollonia**، ومترودوروس من لامپاسكوس **Metrodorus of Lampascus** فى العصر الذهبى لأثينا، أو حتى قبل ذلك، ثياجينيس من ريجيوم **Theagenes of Rhegium**؛ كان هذا خطأ ترميز فيلون للنصوص العبرية - ولتسامحنى عزيزتى حنّة لقولى هذا. إن ترميزات فيلون دُمجت بكليتها فى منظومات المفكرين المسيحيين المبكرين، مثل كلمينت السكندرى، وأوريجن. فى الأناجيل المسيحية، يخترع يسوع حكايات رمزية ويقوم بتفسيرها. وهذا أمر مختلف. هنا مؤلف القصة الرمزية يعمد إلى بناء أمثولة حول فكرة صريحة وواضحة التشكيل. وهذا يشبه العبرة التى تنطوى عليها إحدى نوادر أيسوب، أو مثل القصد من وراء أمثولة أفلاطون الرمزية عن الكهف فى الـ جمهورية. ولكن فى قراءتى لمعان ميتافيزيقية فى الأسطورة - كما فى حالة أى تفسير جائز

(*) محاورة فيليبوس (Philebus)، من محاورات أفلاطون الأخيرة، وسقراط هو المتحدث الرئيسى فى هذه المحاورة التى تتناول قضية القيمة النسبية للمتعة والمعرفة، وتنتهى إلى أن الحياة الطيبة بالفعل تجمع بين الاثنين، وتتطرّق إلى مسائل ميتافيزيقية عميقة.

(**) Sophist: إحدى محاورات أفلاطون الأخيرة، كتبت تقريبا فى ٣٦٠ ق.م. وتهدف شكلا إلى تحديد ماهية "السفسطائى"، لكنها تتناول أكبر الألغاز الميتافيزيقية والإبستمولوجية.

للمعنى فى نص محدد - فإننى أستخدم الأسطورة كمناسبة لتوليد أفكار أصيلة من عقلى أنا، بالضبط كما يمكن أن أقوم بتأمل بعض الأحداث أو بعض الظواهر الطبيعية فتتولد أفكار لا يمكن لأحد أن يدعى أنها كانت وراء الحدث أو الظاهرة التى قدّمت المناسبة لهذا التأمل - أو يمكن أن نقول، مثلما رأى سقراط فكرته العظيمة عن الجهل الفلسفى فى النبوءة التى أدلت بها الكاهنة إلى خايريفون(*). هذا هو المعنى الذى أجده فى إصرار أفلاطون على أنه لا يوجد نص محدد له القدرة على كشف القصد الأصلى لمؤلفه. إن الاستخدام العاقل الوحيد للنص هو أن نجعله مناسبة لنفكر لأنفسنا".

(*) خايريفون Chaerephon ولد تقريبا ٤٧٠-٤٦٠ ق.م، وتوفى تقريبا ٤٠٣-٣٩٩ ق.م)، كان أحد الأصدقاء والتابعين لسقراط. ولا يعرف عنه إلا القليل جدا الذى جاء فى الكتابات الكلاسيكية. ومنه ما جاء فى محاكمة سقراط حيث يقول إن خايريفون ذهب إلى كاهنة وسألها من هو أكثر البشر حكمة، وأجابت بأنه سقراط.

ثمانية

كانت صوفيا ومريم تسيران متجهتين إلى المدرسة. ونادى عليهما حتب من على مسافة خلفهما: "صوفيا، مريم!" فأبطأتا فى سيرهما؛ وأسرع فى خطواته حتى لحق بهما.

وبمجرد أن وصل إليهما حتى أعلن إليهما بسعادة: "لقد سُمح لى بالمشاركة فى السرّ المقدّس الأول، أنا الآن مسيحى متعلّم، وأتطلع بشدة لميلادى الروحى الكامل بالتعميد". أومأت صوفيا بهدوء. ولم تظهر مريم أى رد فعل.

شعر حتب بإحباط واضح؛ وقال بحزن: "ألن تهنئانى؟" غمغمت صوفيا بشىء غير واضح، وقالت مريم: "تعلم أننى نصحتك بألا تندفع. إننى أقول عن نفسى أننى مسيحية وأحضر الخدمة الكنسية من حين لآخر، لأننى لا سبب عندى حتى الآن لقلقلة أساليب الحياة التى ولدت فى ظلّها، ولا أرغب فى إرباك والدىّ وأقاربى وأصدقائى. لكنى لا أستطيع بضمير مرتاح أن أقول لك أنك فعلت شيئا طيبا. ومع ذلك، إن كنت بعد التفكير والتدبّر قد اقتنعت بأن ما تفعله هو الصواب، فبالطبع ينبغى أن تفعله. وأتمنى لك كل خير".

سار الثلاثة معا دون أى كلمة أخرى حتى وصلوا إلى أرض المدرسة.

تسعة

تكملة لمناقشة بدأت أثناء خروجهم من المحاضرة، سار حتب ومريم وصوفيا مع هيپاتيا فى طريقها إلى منزلها. قال حتب: "وفقا لتعاليم الكنيسة، كانت المرأة هى التى أغوت الرجل إلى العصيان والخطيئة".

كان على هيپاتيا أن تبذل مجهودا لكى لا يؤثر استياؤها على صوتها.

"إنك تخطئ فى حق الأسطورة ذاتها التى تعتبرها من وحى إلهى، وتدعى أنك تعتبرها صادقة حرفيا ـ أو على الأصح، ليس أنت، بل هؤلاء الذين وضعوا هذا التفسير المنحرف للأسطورة القديمة، بولس الذى تُجِلّه وأوغسطين الذى تُعجب به. هما كلاهما رجلان دخلا إلى الدين الجديد مثقلين بشعور بالخطيئة والذنب. وبدلا من الحفاظ على التعاليم المشرقة للناصرى ونشرها، كما يُفهم فحواها من روايات بعض تابعيه، أثقلوا هذه التعاليم الطيبة بالغثاء الذى جاءوا به معهم. فبدلا من اعتبار الأسطورة تعنى أن المرأة أغوت الرجل إلى العصيان والخطيئة، أليس من الأفضل أن تقول إن المرأة فى الأسطورة ـ كان اسمها حواء، أليس كذلك؟ ـ قادت الرجل وقادت البشر جميعا إلى أن "يفتحوا عيونهم"، ليس على محاشمهم كما تقول حكايتكم السخيفة، ولكن على المعرفة، أن يفتحوا عقولهم على الفهم، وأن يطالبوا بحريتهم وحقهم فى أن يقرروا لأنفسهم بدلا من الرضوخ الأعمى لأية سلطة؟ إن الحيّة فى تلك الأسطورة بهذا التفسير سوف تعنى الشعور بعدم الارتياح أمام المجهول، القلق الذى نشعر به عندما نصبح مدركين لجهلنا ـ هذا القلق الخصب الذى يولّد الحافز لأن نعرف وأن نفهم".

توقفت هيپاتيا للحظات، وهى تنظر إلى مستمعيها لترى تأثير كلماتها عليهم. بدت مريم بعينين لامعتين، مسحورة بوضوح بهذا التفسير الجديد لما كان حتى تلك اللحظة بالنسبة لها قصة صبيانية. لكن حتب كان مكتئب الوجه. لم يكن سعيدا بهذا التشويه لمعتقدات أصبح يجد راحة فيها.

استمرت هيپاتيا: "إنكم ترون كيف أن هذا يصور ما حاولت دائما أن أؤكده، وما كان أفلاطون حريصا على توكيده. فبالنسبة للأساطير القديمة، مثلما هو بالنسبة لأى نص محدد، من العجرفة والغباء أن نقول أن المؤلف الأصلى كان يعنى هذا أو ذاك. ما دمنا لا نستطيع أن نسأل المؤلف، سواء كان رجلا أو امرأة أو إلها، فليس من حقنا أن نقول أنه كان يقصد هذا أو ذاك".

وصلوا إلى بيت هيپاتيا، وتوقفت هيپاتيا، وهى تتوقع منهم أن يودعوها. لكنهم كانوا مترددين فى الذهاب؛ كانوا يرغبون فى سماع المزيد. قالت هيپاتيا: "هل تدخلون؟" قبلوا الدعوة مسرورين. دخلوا الردهة البسيطة، التى يألفونها من زيارات عديدة سابقة. جلست مريم فى مقعدها المعتاد إلى جوار حامل يحمل تمثالا نصفيا لسقراط.

واستأنفت هيپاتيا: "سوف أعطيكم مثالا آخر يصور كيف أن النص المحدد يمكن أن يقال أنه ليس له معنى فى حد ذاته. فالسياق يمكن أن يضع حدودا بدرجة ما للتفسيرات اللانهائية المحتملة عمليا للنص. لكن الشيء الأساسى فى المعنى الذى نقرؤه فى أى نص يأتى من مخزون الأفكار فى عقل المستمع أو القارئ. سأعطيكم المثال الذى فى ذهنى. لقد قرأت بموقع ما فى أدبياتكم المسيحية قولا ملغزا لكنه شديد الثراء. وهو يقول ما معناه "من له سوف يُعطى..."

قالت صوفيا: "لأن كل من له يُعطى فيزداد ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه".

استمرت هيپاتيا: "نعم. إننى أجد فى هذا معنى عميقا، يمكن أن يقول المرء أنه مبدأ على المستوى الميتافيزيقي. كلما كان العقل أكثر اتساعا وثراء، وجد فى نص ما

أو موقف ما ثراء أكثر. يمكنك أن تقرأ كتابا جيدا وأنت صغير وما زال مجالك المعرفى محدودا. ويمكنك أن تستمتع بالكتاب وتشعر عن حق بأنك تفهمه. ثم بعد عشر سنوات أو أكثر، أو ربما أكثر كثيرا، تعيد قراءة الكتاب، وتكتشف معانى جديدة فيه وتعجب فى نفسك: "كيف خدعت نفسى بالظن أننى فهمت هذا الكتاب عندما قرأته لأول مرة؟ حقا، كيف كان يمكن أن أفهمه حينئذ؟" فعقلك الذى أصبح أعلى كثيرا فى تعقيده سوف يقرأ حتما فى الكتاب معانى ربما تكون أقرب لما كان المؤلف يضعه فى ذهنه، أو ربما لا تكون كذلك. لا يمكنك أن تكون متأكدا من ذلك أبدا".

نظرت هيپاتيا إلى وجوه مستمعيها. مرة أخرى، بدت مريم متشوقة ومليئة بالحيوية وهى تتشرب كلمات معلمتها، لكن حتب بدا فى حالة توتر إلى حد ما، ربما فى حالة حيرة. وعندما شعرت هيپاتيا بذلك، استمرت: "هذا هو ما قرأته فى هذا القول. وقد سمعت من أحد رفاقكم المسيحيين تفسيرا مختلفا. ربما يمكنك يا حتب أن تكون أفضل منى فى إخبارنا بالتفسير الذى تدعمه الكنيسة".

استجاب حتب فقال: "بكل سرور. التفسير الذى سمعته من أحد معلمينا هو أن من لديه إيمان بالمسيح يُعطى النعمة والحياة الأبدية. أما من ليس لديه إيمان بالمسيح فليس له نصيب من هذا".

أرادت هيپاتيا أن يكون تعليقها أقل إثارة للضيق والاستياء بقدر الإمكان: "بالفعل، هذا تفسير ممكن مثله مثل أى تفسير آخر. ولكن، بالنسبة لنفسى، أجد أنه تفسير مقيِّد بشكل لا ضرورة له. يمكننى أن أقول أيضا أننى لا أشعر بالارتياح له من نواح أخرى، ولكن هذا سيخرجنا من سياق نقاشنا الحالى".

كانت تشعر أن الكنيسة لها تأثير سيّئ. ففى الأيام القديمة الطيبة، كانت آلهة المصريين وآلهة الإغريق تعيش معا بسلام جنبا إلى جنب. كان الأتقياء من كل العقائد يشعرون بأنهم يتحسسون طريقهم، يبحثون عن شىء مشترك بين الجميع وإن لم يكن معروفا لأحد. كانت فكرة اليهود عن إلههم الغيور الذى لا يقبل منهم إبداء الاحترام

لأى إله آخر، وهى نفس الفكرة التى ورثها المسيحيون، هى التى ولدت التنافر. والآن أصبح المسيحيون، ليس فقط أعداء ألداء لكل الأديان الأخرى، بل انهمكوا فى حرب داخلية مريرة جعلت كلا منهم مستعدا لقتل رفيقه المسيحى بسبب حرف فى كلمة ـ أجل بسبب مجرّد حرف فى كلمة.

تعجبت هيپاتيا فى مرارة، كم كان من المحزن أن الإسكندرية، التى كانت طويلا منارة ثقافية وروحية يفوق إشعاعها ضوء منارتها البحرية العظيمة، قد أصبحت متدهورة من كل ناحية. منذ حدث ذلك النهب المخجل والمشئوم للمكتبة العظيمة والذى ارتُكب قبل ستة وعشرين عاما تحت قيادة الأسقف ثيوفيلوس ـ تلك المكتبة التى لم تكن فخر الإسكندرية فقط، وفخر مصر فقط، بل كانت أيضا فخر العالم المتحضر كله – منذ ذلك الحدث، أصبح مجتمعنا، شعبنا، يغرق أعمق وأعمق فى مستنقع الجهل، والتعصب، والخرافة.

لكن هيپاتيا لم تكن ترغب فى زيادة مرارة المحادثة الجارية. فعلى أية حال، من بين الحاضرين بصحبتها، كانت مريم فيلسوفة أكثر وعيا من أن تخضع للتعصب أو الدوجماتية، وصوفيا، التى كانت بطبيعتها رقيقة وطيبة، كانت نموذجا لأفضل ما يوجد فى المسيحية أو أى دين آخر. أما حتب، فهو الذى جعلها تشعر بالقلق؛ ولكنها كانت لا تزال تأمل فى أن الحماس لدخوله الجديد فى الديانة المسيحية سوف يلطّفه صوت العقل بمرور الوقت. ومن ثم فقد عادت بالمناقشة إلى موضوع عدم ثقة أفلاطون بالنصوص المحددة، والذى كان موضوعا محببا لها. وتحدثوا حتى شعر ضيوفها بأنهم استغلوا طيبة معلمتهم الكريمة أكثر مما يجب، فاستأذنوا فى الانصراف.

عشـرة

فى قاعـة المحـاضـرات، تحـدثت هيپـاتيـا : "سـوف أحـاول الآن أن أطوِّر تفسـيرى الميتـافيزيقى للأسطورة بتطوير الأدوار التى عينتـهـا لكل شـخصـيـة من الشـخصـيات. سوف أبدأ بـ رع. وفى البداية لابد أن أعـتـرف أننى وضـعـت فى رع كثيـرا من فكرى الخاص، أكثر بكثير حتى من الشخصيات الأخرى. وربما لى عذرى فى ذلك. على أية حال، أرجو أن تتساهلوا معى فى هذه النقطة وأعدكم أنكم سوف تجدون، ونحن نتقدم للأمام، أن تمثيلى الرمزى أكثر قبولا.

"وهكذا، فنحن نعتبر رع رمزا لـ حقيقة. ثم نسـأل: مـا هـى الـ حقيقة؟ لم يكن سقراط، بقدر ما نستطيع أن نقول، مهتما بمشكلة الحقيقة الميتافيزيقية، ومع ذلك، فهو أول من قادنا إلى الحقيقة الميتافيزيقية الوحيدة المقبولة.

"نضـجت الفلسـفة بمجىء مفهـوم سـقراط عن المعقول بوصـفه عالم الحـقيقة. فكل الفلاسـفة السـابقين فكروا فى الحـقيـقى كشـىء مـوضـوعى. كـانت نـار هيـراقليطس شيـئا مـوضـوعيا، وكـان مـفـهـومـه لـ لوجوس مبدأ ينبثّ فى كل الحـقيقة، لكنه فى حد ذاته لم يكن يُرى بوضـوح باعتباره الـ حقيقى، رغم أنه، لكى نكون عادلين مع هيراقليطس، لابد أن نقول أنه فيما يبدو كان يتحرك فى ذلك الاتجاه. وعادَلَ پارمنيدس "أن يكون" بـ "أن يُعقَل"، ولكنه أيضـا تصـوّر الـ واحـد كـشـىء مـوضـوعى. واعـتـرف أناكـسـاجـوراس بالأسبقية المنطقية للعقل (nous) على العملية الكونية، ولكن ظلت الحقيقة بالنسبة له هى الكون المنظم موضـوعيا. سقراط، كما فهمه وقدمه أفلاطون، رأى المعقول باعتباره الحـقيـقى وكل الحـقيـقـة، وأن أى شـىء آخر يسـتـمـد مـا له من حـقيـقة بالاعـتـمـاد على

المعقول. الحقيقة ليست ما نراه ونلمسه ونحسبه ونقيسه: ذلك هو المظهر الخارجي للحقيقى؛ فالحقيقى هو العقل الخلاق الذى يولّد ويحفظ الموضوعى. هذا هو المبدأ المركزى لأفلاطونيتى: حقيقتنا الداخلية هى كل الحقيقة. وهكذا يمكن أن أقول: أنا الله - ليس أنا بشخصى، هيپاتيا، التى تتحدث إليكم هنا والآن، ولكن الـ أنا التى فينا كلنا. كل شيء خارج الـ أنا متحوّل ومتلاشٍ، وكل ظهور معيّن للـ أنا، كل تعبير أو توكيد محدد للـ أنا، زائل. فقط الفعل الإبداعى للـ أنا النهائية هو مُتسامٍ ومجاوز للزمن.

لكن رع بدون نوت عقيم. فـ واحد پارمنيدس لا يستطيع توليد موجودات فعلية. والكينونة الأرسطية مجدبة. ولكى تحمل الـ حقيقة وتحفظ الوجود الفعلى، الذى هو فى حد ذاته مُثقل باللاكينونة، لابد للـ حقيقة أن تكون متعددة الأبعاد ولابد أن تكون خلاقة. تظل الصيرورة غير معقولة حتى تكون الحقيقة النهائية فى مفهومنا ليست بسيطة، وإنما لها أكثر من بُعْد واحد. وعندما نحاول أن نجد قانونا أو صيغة تحكم كل صيرورة، نجد أنه، رغم أننا يمكن أن نجد صيغا تضفى المعقولية على الصيرورة، فإن مثل تلك الصيغ كلها هى فى الأساس من نفس طبيعة الأساطير البدائية الساذجة، وأنه وراء كل تلك الصيغ ليس هناك إلا الرؤية الأساسية بأن الـ حقيقة النهائية خلاقة، وأن فعل الإبداع ملمح، أو مبدأ، أو بُعْد نهائى للـ حقيقة. هذا هو ما أسميه مبدأ الـ إبداع.

"من ثم، فإن الـ حقيقة النهائية فى مفهومى هى الـ أزل الخلاق، فعل الإبداع هو العقل الخلاق، الذى يبدع على الدوام معقولات، وتلك المعقولات تتلاشى على الدوام فى معقولات جديدة، مثل الألوان المتغيرة باستمرار للسحب وهى تعكس أشعة الشمس الغاربة، أو مثل نغمات لحن غنائى، كل نغمة ليس لها كينونة إلا فى صيرورتها إلى النغمة التالية، كل لحظة وجود موضوعى لا تحيا إلا بموتها إذ تلد اللحظة التالية. وهذا ما أسميه مبدأ الـ زوال. كل واقع محدود معيّن زائل، ولا وجود إلا للواقع المحدود المعيّن: وهكذا كل وجود زائل، والزائل فقط له كيان واقعى. الـ حقيقة الخلاقة هى وحدها متسامية ومجاوزة للزمن.

"فى منتهى الأمر، لا شيء يمكننا أن نفسره. كل شيء يبقى سرّا. لكننا يمكن أن نصل إلى عدد من المبادئ الأولى - وإن شئتم يمكنكم تسميتها لحظات نهائية من الحقيقة. ومن هذه اللحظات أو المبادئ، أؤكد ما يلى: سرّ الكينونة نهائى؛ حقيقة العقل نهائية ولا يمكن إرجاعها لأصل مغاير: عبثا نحاول أن نرى العقل أو أن نفهم العقل فى صيغة معطيات موضوعية؛ مبدأ الإبداع نهائى؛ مبدأ الزوال نهائى، يعلن بأن كل واقع محّدد معيّن، وأن كل فكر محدّد: زائل، شارد، لا كينونة له إلا فى الحقيقة المتسامية للعقل الخلاق. وهذا هو السبب فى أننى أضع كل وجود كل واقع مضاداً للحقيقة المعقولة، أو ربما من الأفضل أن نقول، لحقيقة العقل الخلاق. ولإبراز تسامى الحقيقة، فإننى أسمِّى الـ حقيقة النهائية: الـ أزل الخلاق".

توقفت هيپاتيا للحظة. عندما تكلّمت كانت نغمة حزن تغشى نبرتها:

"قبل أن أختم محاضرة اليوم، دعونى أضِف كلمة تحذير، رغم أنه قد لا يبدو ضروريا جدا فى هذا الفصل، إلا أنه من الجيد أن يكون حاضرا دائما فى أذهاننا. مهما كانت الأسطورة ثرية فى مغزاها الرمزى، فإن تقدير مغزاها الرمزى شيء، والاعتقاد فى الصدق الحرفى للرموز شيء آخر تماما. إن أسلافنا، المصريين والهيلينيين، حتى الناس العاديين البسطاء منهم، ربما لم يتشككوا فى صدق أساطيرهم، لكنهم أيضا لم يتمسكوا بها حرفيا فى تعصب. كانوا يقبلون ببساطة وأريحية التنويعات والصيغ البديلة لأنهم، بحِس سليم، كانوا يدركون أن المهم هو المعنى السديمى المبهم الذى يكمن وراء الرموز؛ إن ما كانت له قيمة بالنسبة لهم هو التجربة المعاشة التى تثيرها الحكاية فيهم. وهذا هو السبب فى أنه كان من الممكن أن يوقر الهيلينى إلها أو إلهة مصرية دون أى شعور بأنه خان ديانته الأهلية. وأنتم تعلمون أن معبد سيرابيس كان يستقبل المتعبدين من كل الطوائف. وكان الناس يقدمون توقيرهم على حد سواء لكل من أوزيريس، وزيوس، وبلوتو، وأبيس. ولم يكن ثمة تعارض أو تنافر بين المتعبدين. كان اليهود هم أول من جلبوا علينا مرض العقيدة

المحددة التى يجب أن تُقبل بكاملها وتمامها كصدق مطلق لا يقبل المساءلة. والآن أخذ المسيحيون هذا إلى ذُرىً جديدة من اللاعقلانية. فهم لا يتوقعون فقط أن تُقبل أساطيرهم الأساسية حرفيا، لكنهم ينشرون يوما بعد يوم ألغازا تخريفية جديدة يقاتلون بشأنها ويَقتلون".

تحدثت هيپاتيا بحرارة زائدة عن المعتاد. لم تكن تفكر فى الطلبة المسيحيين فى فصلها. كانت مريم الشكاكة، وصوفيا المسيحية على أساس أن هذا هو الواقع، كلتاهما كانتا بعيدتين عن التعصب، كلٌ بطريقتها. لكن حتب لم يكن كذلك، إذ كان مشتعلا بنيران التحوّل الجديد. ولو نظرت هيپاتيا ناحيته بينما كانت تتكلم، لرأت أنه كان قلقا بشكل واضح. لكن هيپاتيا لم تكن تفكر فى حتب أيضا. لقد كان الاتقاد غير المعتاد لحديثها يرجع إلى التقاء تيارين عارمين. فى تحركاتها اليومية ذهابا وإيابا، وفى التعاملات العادية للحياة اليومية، كانت تعى بازدياد ما ينتشر فى المجتمع من صرامة دوجماتية متنامية، وامتثال مميت، وإذعان صاغر، للسلطة. ثُمّ... ـ ومن المؤكد أن هذا كان مسئولا بدرجة أكبر عن حالة الغيظ التى انتابتها ـ تحوّل حُتب الحديث حرّك فيها آلاما قديمة لتحوّل أسبق كان أقرب إليها.

أحد عشر

"عندما أحضر اجتماعا كنسيا أجدهم يضربون على وتر واحد، الخطيئة"، كانت صوفيا تشكو لمريم وهما تسيران تحت شمس الشتاء اللطيفة. وكان رمسيس قد عبرهما لتوّه عندما التقطت أذنه الكلمات، فاستدار إليهما.

"أنتم المسيحيين مهووسون بفكرة الخطيئة والجسد الخطّاء".

قالت مريم: "إن ما تقوله الأناجيل عن يسوع فى هذا الشأن لا يتسم بالاتساق التام. فبينما هناك فى الأناجيل الكنسية الكثير مما يوحى بأن يسوع لا يرى الجسد كشىء فاسد وملوث، مثل استهانته بطقوس الاغتسال والتطهر، ومثل قوله: 'ليس ما يدخل الفم يُنجِس الإنسان. بل ما يخرج من الفم هذا يُنجِس الأنسان'، ومع ذلك، فإنهم ينسبون إليه القول: "وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه".

قال رمسيس: "لنفترض أننى أتحدث مع فتاة أو أخرى من زملائنا، ما هو الشر فى أن تتحرّك فىّ رغبة فيها وأنا أتحدث معها؟".

قالت صوفيا: "رغبة؟"

رمسيس: "نعم، أعنى أن أرغبها جنسيا. هذا شعور طبيعى ينشأ طبيعيا: إننى أستجيب بشكل طبيعى لجمالها وسحرها الطبيعى".

صوفيا: "حتى لو لم تكن الرغبة فى ذاتها خطيئة، فقد تقود إلى الشر".

رمسيس: "دعونا نفحص هذا. إن كنت قد شعرت بتلك الرغبة فى نفسى، فهناك

مسارات متعددة مفتوحة أمامى، قد أتبيّن أنه توجد عقبات لا سبيل للتغلّب عليها أمام تحقيق تلك الرغبة. أكتفى بالإثارة الممتعة للشعور اللحظى، وينتهى الأمر هنا. لا أحد أصيب بضرر، ولا خطأ ارتكب".

صوفيا: "لست متأكدة من هذا. ومع ذلك، هناك احتمالات أخرى".

رمسيس: "نعم. ربما أفكر فى احتمال أنها قد تستجيب بشكل إيجابى لرغبتى فأعبّر لها تلميحا عن رغبتى بكلمة، أو إلماحة، أو حركة. فإذا ظهر أننى كنت مخطئا، ورفضت محاولتى، فإن الضرر الوحيد المحتمل هو جرح كبريائى".

مريم: "وماذا عن جرح مشاعرها؟"

رمسيس: "هذا من المؤكد شيء كان ينبغى أن أضعه فى اعتبارى، ومن المؤكد أنه يمكن لومى لأننى لم أكن مراعيا بما يكفى. دعونى أمضى إلى الاحتمال الباقى. فالفتاة يمكن أن تستجيب لرغبتى. عندئذ يتلو ذلك حدوث نتائج متنوعة، بعضها طيب وبعضها سيِّئ. نحن الاثنان يمكن أن نعاقَب، وعن حقّ، لأننا تصرفنا بحمق. لكن فى الرغبة فى حد ذاتها، وفى الرضوخ لها فى حد ذاته، لم يكن ثمة تلوث، لا خطيئة، لا شر".

صوفيا: "إذن أنت تعتقد أنه لا شر يمكن أن يتصل بمثل هذه الحالة؟"

رمسيس: "إنك تصوّريننى وكأننى وحش عبثى، أو على الأصح باعتبارى عبث وحشى. إن أسوأ الأخطار وأخبث الشرور يكمن فى كل التعاملات بين البشر، ليس فقط بين الرجل والمرأة، ولكن فى كل المعاملات بين إنسان وإنسان آخر. لكن دعونى ألتزم بحالتنا الافتراضية. إن الخطأ الوحيد الذى قد يؤذى الروح وبالتالى يكون خطأ أخلاقيا وشرّا أخلاقيا، هو إنْ أنا فى أية لحظة، فى أية كلمة أو فعل، بأية كلمة أو فعل، تجاهلت أو انتهكت إرادة الفتاة، أو انتهكت سلامة واستقلالية شخصيتها، إذا استخدمتها باعتبارها شيئا ولم أتواصل معها كإنسان. لو استخففت بمشاعرها، لو تجاهلت ما هو خير لها، لو تسببت فى إيلامها، فى هذه الحال أنا أخسر إنسانيتى. لكن رغبتى فى

حد ذاتها وبحد ذاتها لا غبار عليها. إنْ اجتمع شخصان فى حب، فيخطئ فى حق الحياة من يرى خطيئة فى ذلك. بالطبع قد تكون هناك عواقب مؤسفة لأى علاقة إنسانية، لكن هذه قضية أخرى، ولا ينبغى أن يُسمح لها بتشويش القضية الأساسية هنا".

اثنا عشر

كانت هيپاتيا فى طريق الخروج من أرض المدرسة. وكان حتب مارا . غمغم بتحية مهذبة وكان على وشك أن يمضى فى طريقه. قالت هيپاتيا: "انتظر، دعنا نسير سويا". بدا عليه التردد. قالت: "لن أخرجك عن طريقك. لن أتوجه نحو منزلى. إننى أريد فقط أن أتمشى قليلا".

وكأنما ليستبق هجوما متوقعا، قال حتب فجأة: "أعرف أنك لست سعيدة بتحولى إلى المسيحية".

هيپاتيا: "إنك تعرف موقفى".

حتب: "لا يبدو أنك تجدين أى مشكلة فى كون مريم مسيحية. لماذا يحزنك كثيرا تحولى إلى المسيحية؟"

هيپاتيا: "مريم لم تختر أن تصبح مسيحية؛ لقد ولدت ابنة لوالدين مسيحيين، وهى تحتفظ بعقل متفتح، تسعى للفهم أينما تجده. أنت وريث لثقافتين ثريتين، الثقافة المصرية والثقافة الهيلينية، وفوق هذا أنت وريث للسعى الحثيث للبشرية فى كل مكان للوصول إلى التفاعل مع أسرار الكينونة والحياة، وأنت ترغب فى مبادلة كل هذا بعقيدة دوجماتية ضيقة. من المؤكد أن احترامك لعقلك ينبغى أن يدفعك للتوقف والتفكير".

حتب: "لماذا لا تنظرين إلى العقيدة المسيحية بدورها كمساهمة تستحق التقدير فى الثقافة الإنسانية؟"

هيپاتيا: "إننى مستعدة تماما لفعل هذا. أنت تعرف أننى فى كثير من محاضراتى أستشهد فى استحسان بأجزاء مختلفة من الأدبيات المسيحية. وأنت تعرف أننى

أعجب بالتعاليم الروحية المنسوبة فى بعض الكتب إلى منشئ الحركة المسيحية، وأجدها منسجمة تماما مع المنظور الأخلاقى لسقراط".

حتب: "إذن فما الذى تجدينه خطأ فى المسيحية؟"

هيپاتيا: "الكثير، وبصراحة... لا أريد أن أضايقك أو أسبب لك الألم، ولكن... بصراحة، يحزننى بشدة عدم قدرتك على رؤية ما هو خطأ".

توقفت. كانت حزينة. وفى حالة أشبه بالإغماء عاشت من جديد تجربة مدمرة، مرت عليها عشرون سنة. مرت لحظة لم تكن فيها حاضرة فى هنا والآن؛ كانت تعيش فى ذلك المكان وذلك الحين. للحظة، لم يكن حتب بجوارها هو حتب، ولكن ذلك الشخص. واستولى عليها خليط ممرض من الغمّ والحيرة. كيف يمكن لشاب عاقل، كانت تتوقع منه الكثير، أن يتخلى بهذه البساطة عن حقه فى التفكير، وفى التساؤل، وفى أن يصبح سيّد عقله هو؟ هل هذا هو الشخص الذى أحبته فى وقت ما؟ الرجل الذى كانت قد اتحدت معه لبعض الوقت؟ ذلك الاتحاد الذى شعرت فى ذلك الوقت أنه نقى ومقدس لأنه كان اتحادا بدنيا، وروحيا، وميتافيزيقيا، فى آن واحد. كيف أمكنه أن يشير إلى فعل توكيد الحياة ذاك، باعتباره خطيئة؟ من المؤكد أن القالب الفكرى الذى يحول الحب إلى خطيئة لابد أن يكون فاسدا وشريرا.

هزت رأسها بعنف لتعود إلى حيث كانت بجسدها. كانا قد وصلا إلى المكان الذى يقوم فيه معبد السيزاريوم(*) الذى تحول إلى كنيسة. شعرت به يبطئ من خطواته. ورأته يحول رأسه نحو مدخل الكنيسة. قالت: "هيا، اذهب، ادخل". وبدون كلمة اختفى داخلها.

(*) السيزاريوم: معبد كان يقع بالقرب من الشاطئ فى مركز ميناء الإسكندرية، وكانت له حدائق ومكتبات، بنته كليوباترا من أجل أنطونيو. وبعد سقوطهما كرس أوجسطس المعبد لعبادة القياصرة. وفى القرن الرابع الميلادى تحول المعبد إلى كاتدرائية الإسكندرية، وفى عام ٩١٢ ميلادية تم تدمير المبنى.

ثلاثة عشر

قبل ترك قاعة المحاضرة، كانت إيزيس مليئة بالحيوية، كما هى دائما بعد سماعها حديث هيپاتيا. لكن عندما خطت إلى الخارج، زحف على قلبها شعور ثقيل. وفى تردد، اتجهت إلى "مقعدهما" المعتاد تحت شجرة السرو الضخمة. رآها حتب أمامه، وبقوة العادة أكثر من الميل الذاتى أسرع فى خطواته ليلحق بها. وصل إليها وسار صامتا بجوارها. كان واضحا أنه فى حالة من الاكتئاب، وشعرت بذلك الثقل يضغط على قلبها أكثر. وصلا إلى "مقعدهما" وجلسا عليه. مرت دقيقتان كانا فيها يحدقان أمامهما بلا هدف. ثم، بدون أى مقدمات، تحدثت إيزيس وكأنها تستأنف مناقشة كانت تجرى وتوقفت للحظات.

إيزيس: "هل افتراض خالق سابق الوجود ينهى سرّ الكينونة؟ ألا ينقل المشكلة فقط إلى مرحلة أخرى أبعد. إن أختى البالغة خمس سنوات عندما يُقال لها إن الله خلق العالم تسأل على الفور، ومن خلق الله؟ إنها فيلسوفة أفضل من كل اللاهوتيين الذين تتبعهم إذا وضعوا معا. إن سرّ الكينونة سرٌّ نهائى لن يختفى أبدا. إنه يحدق فى وجوهنا بمجرد أن نصبح واعين بكينونتنا ـ وبتعبير آخر، بمجرد أن ننشأ ككائنات عاقلة. إن ميلاد الكائن الإنسانى هو ميلاد الفيلسوف الذى يدهمه العجب".

حتب: "إننى أقدر هذا. إننى أعجب كثيرا بالطريقة التى تبْسطين بها السر النهائى للكينونة. لا عجب أن هيپاتيا تفخر بك بشكل خاص. لكن مع ذلك، أعتقد أن نظام الكون يشير إلى صانع عاقل".

إيزيس: "لماذا لا يكون هذا العقل عقلا متأصلا فى الحقيقة الأولية؟ فعلى أية حال،

أفضل عقل نعرفه ليس عقل الحرفى الذى يعمل على أشياء خارج الصانع نفسه وينتج أشياء منفصلة عن منتجها. إن أنقى عقل نعرفه هو عقل الشاعر، والفيلسوف، والرياضى، حيث بالعقل ذاته، فى حد ذاته، وبذاته، ومن ذاته، ينبثق إبداعيا، يعيش حقيقته الخاصة فى نشاطه الخلاق ذاته."

حتب: "عزيزتى إيزيس، لا أعرف إن كنت أحبك أكثر، أم أعجب بك أكثر، أم أخشاك أكثر، عندما تنطلقين فى تلك الأفكار الأفلاطونية المُحلِّقة. ولكى أكون أمينا معك، إن شعورى الطاغى هو الرعب. إنك تجعليننى أشعر بالدوار وتجعليننى أخشى من فقدان الأمان الذى وجدته أخيرا فى إيمانى الجديد".

إيزيس: "حتب، لتكن لك الجرأة على التفكير، تجرّأ على أن تكون مخلوقَ نفسك، مبدعَ نفسك. هذا هو الطريق الوحيد للاحتفاظ بكرامتك الإنسانية، لكى يكون لك قيمتك الحقيقية ككائن إنسانى".

حتب: "لا يا إيزيس، لا. هذا هو الوقوع فى خطيئة الكِبر، رفض هداية السماء، الاعتماد على طبيعتنا الإنسانية الضعيفة الخطاءة".

عرفت إيزيس أنها قد فقدته. لم يكن هذا هو حتب الذى أحبته فى يوم ما. هل كان حتب ذاك الآخر شخصا من صنع خيالها، ورغبتها الذاتية؟ أنوثتها المتبرعمة تاقت للحب، وأضفى خيالها عليه الصفات التى تحبها. عندما تكلمت بعد ذلك لم تكن تخاطب نفس الشخص الذى كان من قبل. كادت تكره نفسها لأنها شعرت أنها لم تكن تتحدث بحرارة. لم تكن تحاول أن تتواصل مع روحه. كانت فقط مهتمة بسوق الحجة ضد موقف فكرى كانت تجده خاطئا. حتى لهجتها كانت مختلفة.

إيزيس: "لنفترض أن وجود العالم، والنظام فى العالم الموجود، يثبت وجود خالق".

حتب: "هذا هو ما أراه".

إيزيس: "حسنا، ماذا يثبت هذا؟ أن الخالق قوى وبارع".

حتب: "نعرف أيضا أنه طيب".

إيزيس: "كيف نعرف هذا؟"

حتب: "بكل الأشياء الطيبة التى زودنا بها".

إيزيس: "وماذا عن كل الشر؟ كل الكوارث، والمصائب، والبلاوى؟ كل الأمراض والتعاسة والألم؟"

حتب: "لا يمكننا أن نحيط بحكمة الله. لابد أن له غرضا فى جعل كل هذه الأشياء تحدث. ومعظم تعاسة البشر تأتى نتيجة أفعالنا الشريرة نفسها".

إيزيس: "يمكننى بكل سهولة أن أقلب كل هذا ضد الموقف الذى تدافع عنه. لكنى لن أنازع فى هذا الآن. سأقرّ لك بخالقٍ شخصٍ، منفصل عن العالم، له كل الحكمة وكل القوة، وكل الخير - سوف نسامحه على كل الشر والتعاسة فى العالم".

رأت إيزيس أن حتب آلمته النغمة الساخرة لتلك الكلمات، وشعرت بالأسف. لم تكن ترغب فى إيذاء مشاعره. وقبل أن يعترض، قالت: "إننى آسفة، انس أننى قلت هذا".

لم يجب حتب. واستمرت إيزيس قائلة: "حسنا، إذا سلمنا بوجود الله، لماذا لا يكون إلهنا الطيب رع؟ أو حتى زيوس الغريب كثير النزوات؟ أو أورمزد الذى يتميز بأنه لا يُلام على الشر، باعتبار أن كل الشر هو من عمل أهريمان(*)؟"

حتب: "إننى مقتنع بأن الكتابات المقدسة التى أقرتها الكنيسة تكشف لنا الإله الحقيقى".

(*) أورمزد: اسم الإله الزرادشتى الذى رأى زرادشت أنه الخالق الذى لم يخلقه أحد، ومن ثم فهو الإله. أهريمان: الروح المدمرة فى العقيدة الزرادشتية.

إيزيس: "على أى أساس، يا حتب؟"

تردد حتب. كان يعرف أن الإجابة التى كانت مقنعة بالنسبة له، كانت بالنسبة لها عبثية. لكنه لم يكن يمتلك إجابة أخرى. ومن ثم، خرجت الكلمات مترددة من بين شفتيه: "إنه كلام الله".

إيزيس: "عزيزى حتب، من المؤكد أنك تعرف مدى السخف فى هذه الإجابة. لابد أن نصدق الكتاب المقدس لأنه كلام الله. من يقول إنه كلام الله؟ الكتاب المقدس يقول إنه كلام الله".

قال حتب بحسم: "الكنيسة تقول إنه كلام الله".

قالت إيزيس بحسم مماثل: "ومن أعطى الكنيسة مرجعية لأن تقول هذا؟ ألا ترى أننا نلف وندور فى حلقة مفرغة؟"

مرة أخرى تردد حتب. ثم قال ببطء: "لابد أن يكون للإنسان إيمان".

إيزيس: "حسنا، أنت تعتقد أن كتابكم يكشف عن الله بالنسبة لك. أى نوع من الإله؟ إله يخلق عامدا الشيطان الشرير؟ إله حانق ومنتقم؟ إله يفضل أمة واحدة معينة ومن أجل خاطرها يصب عذابات لا نهاية لها على أهل مصر الأبرياء بينما كان يمكنه، بقوته التى لا حدود لها، أن يأخذ شعبه المفضل لديه بعيدا دون أن يؤذى أحدا؟ حتى لو استطعت أن تقدم لى دليلا لا يُدحض على وجود وقدرة مثل هذا الإله، فإننى سوف أختار بحرية أن أشوَى إلى الأبد فى جحيمه الأبدى بدلا من إبداء أى احترام له".

تحدثت إيزيس باتقاد، وأصيب حتب بصدمة. من المؤكد لم يكن عقلها بل روحها الوثنية هى التى تتحدث ـ الشيطان يعمل على روحها الوثنية الآثمة ـ هذا هو ما ساقها إلى مثل هذه المعارضة المحمومة لنداء الإيمان.

مرة أخرى، شعرت إيزيس بارتباكه ومرة أخرى شعرت بالأسف على انفجارها غير المتحكم فيه.

إيزيس: "انظر، ياحتب، أنا أعتذر. أنا لا أريد أن أضايقك. يبدو أننا قد وصلنا إلى مواقف لا يمكن التوفيق بينها ومثل هذه المناقشات لن توصلنا إلى أى نتيجة. لكنى لا أستطيع أن أتخلى عن الأمل فى أنك يمكن أن تعيد التفكير فى موقفك بهدوء. إنك تعلم أن مريم تُعد ندوة حول المسيحية. ربما سوف يقدم هذا فرصة للتفكير المتأمل الهادئ".

حتب: "لقد تحدثت مريم معى حول فكرتها. ولا أظن أن أى خير يمكن أن يأتى منها. مريم مسيحية فقط بالاسم. فهى معارضة لسلطة الكنيسة. حتى صوفيا لا يعتمد عليها؛ فهى شديدة الفتور. كل الآخرين وثنيّون - مع الاعتذار".

إيزيس: "ألا تعتقد أن ذلك يضع أساسا لمناقشة عقلانية موضوعية؟"

حتب: "لا، الإيمان يأتى أولا".

لم تستطع إيزيس أن تكبت ملاحظتها الساخرة: "هكذا، أى أنك لابد أن تقرر الدخول فى العقيدة قبل أن تفكر فى الأسس التى يقوم عليها دخولك إلى هذه العقيدة".

فى الأيام الخوالى، كانت مناقشاتهما الطويلة، فلسفية جزئيا وشخصية جزئيا، وثرثرة لا طائل منها جزئيا، تنتهى بـ: "حسنا، حان الوقت للذهاب". وكان هذا يعنى أنه سوف يسير معها إلى بيتها، ويودعها، ثم يتوجه إلى بيته الذى يكونان قد عبراه وهما فى طريقهما إلى بيتها. لكن ليس فى هذا اليوم. لا. لقد انتهى كل شىء. قال: "اسمحى لى، لابد لى أن أذهب إلى مكان ما". وقام، وسار مبتعدا. وتريّثت إيزيس فى مكانها. كانت تعرف أنهما ذاهبان فى نفس الطريق، وانتظرت لتسمح بمرور وقت كاف لتتأكد من أنهما سوف يذهبان - فى نفس الطريق - منفصلين.

أربعة عشر

كان الطلبة يسيرون فى أراضى المدرسة، بعضهم اثنين اثنين معا أو ثلاثة ثلاثة، يتحادثون؛ بعضهم منفردا، يتأمل. لكن مريم، التى كانت تسير وحيدة، لم تكن فى حالة تأمل؛ كان لديها شىء يشغل عقلها؛ كانت تبحث عن شخص ما بالتحديد.

رأت باروخ، وذهبت إليه مباشرة. "أين أختك؟ لماذا هى ليست معك؟" "حنّة لم تستطع المجيء اليوم، إنها متوعكة قليلا". "يؤسفنى هذا، أرجو أن توصل لها أطيب تمنياتى".

استمرت مريم: "باروخ، لقد كنت أفكر فى شىء وأريد أن أطلب منك التعاون. أعرف أنك، مثل كل زملائنا، كنت تتابع المجادلات اللاهوتية التى لا تنتهى بين المسيحيين. أعتقد أن هذا الجنون قد تجاوز الحد".

لم يدهش باروخ من لغة مريم. كان تمرد مريم و"هرطقتها" مسألة معروفة بشكل عام.

استمرت تقول: "الكنيسة تقيّد عقول تابعيها بخرافاتها العبثية. لعلّك تعرف أنه - خارج المدرسة - لا يمكننى أن أتناقش مناقشة عقلانية مع أى شخص فى مجتمعنا. ولو كان هذا هو كل شىء، مهما كان سيئا، لكان الضرر محدودا. لكن التقوقع المتزايد للمسيحيين يقسم مجتمعنا إلى كُتَل متباينة كما لم يحدث من قبل. لم نعد شعبا واحدا. لقد أصبحنا عشائر منفصلة تنظر كل إلى الأخرى بارتياب متبادل وكراهية متبادلة".

قال باروخ بحزن: "ماذا تريديننى أن أفعل يا مريم؟"

مريم: "أوه، لا تفزع! لن أطلب منك أن تذهب وتقود ثورة. إن لدينا ما يكفى من العنف وإراقة الدماء فى الصراعات المتكررة بين عامتكم من اليهود وعامتنا من المسيحيين. أنت وأنا لن نلحق بالغوغاء الذين لا عقل لهم".

قال باروخ مفكرا: "وما هى فكرتك، إذن؟"

"فكرت أننا، كدارسى فلسفة، لابد أن نحاول أن نكون واضحين فى أفكارنا حول ما أسميه هذه الظاهرة المسيحية. أعرف أن صوفيا وأنا المسيحيتان الوحيدتان بين تلاميذ هيپاتيا ـ أو كنا كذلك حتى تحول حتب إلى المسيحية. لكن ما يحدث ينبغى أن يعنينا جميعا. المسيحية لا تنمو فقط عدديا، ولكنها تبنى قلعة عاتية من الفكر العقائدى الجامد، والمسلح الآن بسلطة مؤسسية تهدد بخنق كل بحث حر وتجفيف منابع الفهم".

لم يستطع باروخ أن يمنع نفسه من الابتسام بإعجاب أمام أسلوب مريم البيانى البديع.

باروخ: "حسنا، لا أزال لا أفهم ماذا تريدين منا أن نفعل".

ابتسمت مريم بدورها: "بعد كل الزمر ودق الطبول الذى كنت أستعرض به، أخشى أن اقتراحى سيأتى هزيلا مبتذلا. إننى أنوى أن أنظّم ندوة لمناقشة هذه المسألة: كيف نما هذا الصرح الضخم المروع للكنيسة من تعاليم المصلح اليهودى المعتدل والمحب للسلام الذى عاش منذ حوالى أربعة قرون مضت".

باروخ: "ولماذا تطلبين منى التعاون فى هذا؟"

مريم: "إننى لا أطلب هذا منك وحدك. إننى أنوى أن أسأل إقليدس، فيليپوس، أرتميس، إيزيس، رمسيس، نارمر، وآخرين. لكنى فكرت أنك أنت وحنّة بثقافتكما العبريّة مهيّأن بشكل خاص لإلقاء الضوء على أصول الحركة المسيحية".

باروخ: "حسنا، أعتقد أنها فكرة جيدة. مهما جاء منها، فإن دارس الفلسفة لا يستطيع أن يمتنع عن مناقشة حول ميلاد وتطور الأفكار. اعتبرينى معك".

مريم: "حسنا. سوف أجعلك تعرف متى تم تحديد مكان وموعد اللقاء. وأريد حنّة أيضا أن تشارك".

واحسرتاه! لم تكن مريم تعلم أن الأحداث كانت تجرى بسرعة شديدة لن تتيح لندوتها المقترحة أن ترى النور.

خمسة عشر

فى الفترة الأخيرة كان حتب يتجنب إيزيس. كانت تعرف هذا وكانت حريصة ألا تحرجه بأن تكون فى طريقه. وهكذا عندما سار مترددا نحو المكان الذى كانت تجلس وحيدة فيه تقرأ فى بقعة هادئة من حديقة المدرسة، شعرت بالحيرة أكثر مما شعرت بالدهشة.

قال: "هل يمكن أن أجلس هنا؟" أومأت.

جلس ولفترة طويلة ظل صامتا، يحدق أمامه، لا ينظر إليها. ثم تكلم، وكأنما يتحدث مع نفسه، وكأنما يتلو شيئا درّب نفسه على حفظه طويلا.

حتب: "حقا يقول أفلوطين: 'الحياة هنا بأسفل وسط موضوعات الحِس، هى للروح، انحطاط، غُربة، فقدان للأجنحة'."

إيزيس: "أعتقد أن أفلوطين بقوله هذا يفسد شعر أفلاطون. لقد كان همّ أفلاطون، كما أراه، هو أن الجسد والمتجسد ينبغى ألا يكونا إلهاءً عن، وعائقا أمام، تفتُّح إمكاناتنا الروحانية. كان أفلاطون إغريقيا جدا وتلميذا جدا لسقراط لدرجة لا يمكن معها أن يفقد نفسه فى متاهة من الأخروية. إن روحانية أفلاطون هى روحانية نرتفع إليها ككائنات إنسانية متجسدة. فى محاورته الـ سيمبوزيوم(*) يتم الصعود من خلال

(*) : The Symposium محاورة لأفلاطون كتبت بعد عام ٣٨٥ ق.م. يدور الحوار فى مأدبة؛ حيث يتناوب الحاضرون الحديث عن الحب.

الحب والإعجاب بالجمال المتجسد؛ وحتى عندما يكون فى أعلى درجاته، متجسدا فى القوانين والمعارف، فإنه لا يزال جمالا متجسدا. وفى الـ جمهورية، الرحلة إلى صورة الـ خير تكون من خلال فاعلية العقل، من خلال التفكير الديالكتيكى، الذى يقود إلى الفهم - إلى رؤية الـ خير مكتشَفا فى داخلنا. هذه هى الروحانية 'هنا بأسفل'."

ذُعر حتب من عنف لهجتها. كان من الواضح بالنسبة لكل منهما أن خلافاتهما لم تعد نظرية. وشعر كل منهما أنهما قد جُرفا متباعدين عن بعضهما. والواقع أن حتب لم يعد يشعر بأنه متعلّق بإيزيس بالطريقة القديمة، أو إن شعر بذلك، كان يحاول أن يكبت هذا الشعور باعتباره شيئا دنسا. كان واجبه الآن هو إنقاذ روحها - وربما حتى ذلك لم يكن انطلاقا من الاهتمام بها، ولكن كان نوعا من التكفير عن تعلّقه السابق الآثم بها. وقد كان يأمل أن احتكامه إلى أفلوطين قد يساعد فى توجيهها نحو عقيدته الجديدة. وحيث فشلت هذه الخطة، فسوف يتجه الآن إلى هجوم مباشر.

قال: "إيزيس، لو فقط تستمعين إلى - لو فقط تذهبين معى إلى أحد اللقاءات فى الكنيسة - وتعطين اعتبارا جادا للعقيدة المسيحية - على أية حال، ألا نقول، كدارسي فلسفة، أننا ينبغى أن نزن كل وجهات النظر دون تحيز؟"

حاولت إيزيس أن تجيب بهدوء: "أنا لست جاهلة بالمسيحية. أنت تعلم أننى قرأت كثيرا من الأدبيات المسيحية. وقد وجدت فيها الكثير مما هو جيّد ، والكثير مما هو ليس جيّدا جدّا. لكن قبول المنظومة بشكل كلى كعقيدة متكاملة، خضوعا لمرجعية، هذا ما أراه إهانة للعقل".

حتب: "إيزيس، أنت قرأت بعض الأدبيات - لكن أن تسمعى الكلمة من أولئك الذين وجدوا حياة جديدة فيها - أن تفتحى قلبك لها...".

قاطعته إيزيس: "أفتح قلبى لها! هذا معناه أن أسلم عقلى إلى النوم! لا، لا أستطيع أن أفصل بين قلبى وعقلى. أنا شخص واحد، عقل وشعور وجسد، كلّ واحد".

حتب: "إنك تقبلين فلسفة أفلاطون كما تقدمها هيپاتيا".

بذلت إيزيس مجهودا لتهدئة غيظها، وحاولت أن تتحدث بهدوء أكثر.

"نحن، مع هيپاتيا، نرى أفلاطون كأعظم فيلسوف على الإطلاق. نحن نجد الإلهام فيه وفى أعماله نجد رؤية قيمة. لكننا ننتقد فكره. إننا نكشف عن العيوب فى حُججه ونجد أخطاء فى استنتاجاته. ونحن نعتقد أن هذا هو ما قصد أفلاطون لتلاميذه أن يفعلوا. فهو لم يطلب منا أن نأخذ أى شىء بناء على الثقة أو إذعانا لمرجعية. ولهذا، مهما كان حماسنا للأفلاطونية، لا نزال نحتفظ بحريتنا وكرامتنا. أما الرضوخ لسلطة لم تخضع لمساءلة ولا تقبل المساءلة - سواء كانت سلطة نص أو شخص - فهو يعنى أن نتنازل عن حقنا فى التفكير، وفى الفهم، وهذا معناه أن ندمّر أسس كرامتنا الإنسانية. هذا هو ما تحثّنى على فعله".

مرة أخرى كانت إيزيس تتحدث بحرارة، وعرف حتب أنه لا سبيل له معها.

قال: "إننى آسف من أجلك، لقد أردت أن أقودك إلى الخلاص".

عرفت إيزيس أنها قد فقدته كما عرف هو أنه قد فقدها. قامت واقفة وسارت مبتعدة، وقد أشعل الغضب الحيوية فى خطواتها. أما هو، فقد استجمع نفسه واقفا، وخطا بأقدام ثقيلة فى اتجاه آخر.

ستة عشر

كانت هيپاتيا تختم محاضرتها الصباحية. "عندما احتوى التابوت الذى ابتكرته نفتيس أوزيريس داخله بإحكام تامّ، كان هذا حُكما عليه بالموت. عندما يحيط تابوت الفكر المحدّد بالمعنى فى فى إحكام تامّ، فهذه هى قبضة الموت. هذا هو لُبّ الحكمة فى تحذير أفلاطون من تغليف الفكر الحى فى أى صيغة محددة من الكلمات. إن العقل المتناهى لا يمكن أن يكون له تعبير عن الصدق إلا مشروطا ومحفوفا بالحواشى. وإلا فلن تكون له صلة بالموجودات المشروطة والمحفوفة بالحواشى أساسا فى العالم الفعلى. إن وهم الحقيقة المحددة المطلقة هو رأس الجورجونة الأسطورية التى تحوّل العقل إلى حجر. كل معرفة نسبية ومشروطة. فقط عندما نراها من منظور معيّن يتولد عنها الفهم. فقط عندما تخضع مسلّماتها باستمرار للمساءلة والهدم يظل العقل الذى يحملها حيا وحُرّا. هذا هو السبب فى أن كل مرجعية مسلَّم بها، سواء كانت سلطة بشرية أو - زعما - سماوية، هى موت للعقل، وهى انتفاء للكرامة الإنسانية".

عند تلك الكلمات من هيپاتيا، ألقت إيزيس نظرة سريعة نحو حتب، الذى كان يجلس غير بعيد منها. وعند تلك النقطة تحقّق هو أن طريقيهما قد انفصلا إلى الأبد. ولم يعد من الممكن إطالة تردّده فى التحويل من المدرسة الوثنية إلى المدرسة الكنسية أكثر من ذلك. لابد أن يكون هذا هو يومه الأخير فى هذا الجو الفاسد. غدا صباحا سوف يتقدم للالتحاق بالمدرسة المسيحية. ومن المؤكد أنهم سوف يرحبون به بأذرع مفتوحة.

عند الخروج بحث عن مريم وصوفيا. وسرّه أن إيزيس لم تكن فى الطريق. عندما قالت مريم أنها تريد أن تسأل هيپاتيا عن نقطة فى المحاضرة التى سمعوها لتوهم، قال حتب مناشدا: "من فضلك، لابد أن أتحدث معك، معكما أنتما الاثنتين".

سار الثلاثة خارجين معا، متخذين الطريق إلى حى راكوتيس حيث يقع بيتا كل من مريم وصوفيا بينهما مسافة قصيرة فى شارع أغلب سكانه من المسيحيين.

لم يضيِّع حتب وقتا: "لقد قررت أخيرا أن أتقدم للالتحاق بالمدرسة الكنسية. وأنا أعتقد أنكما ينبغى أن تفعلا نفس الشىء. من الواضح أن تعاليم هيپاتيا لا تتفق مع تعاليم الكنيسة".

ردت مريم بحدّة. كان فى لهجتها غضب ممزوج بعدم التصديق. "أوه، حتب، لا أصدق أنك تقول هذا! هل هذه هى الفلسفة التى كنا دائما نتشدق بأننا مكرّسين لها؟ بالنسبة لى لن أبادل هيپاتيا أبدا بأى معلم آخر فى العالم".

تحول حتب إلى صوفيا. قالت صوفيا إنها لا تستطيع أن ترى أى ضرر فى حضور محاضرات هيپاتيا مع الخضوع للكنيسة فى المسائل الدينية. أصرّ حتب على أنها ينبغى على الأقل أن تستشير والديها. لكن صوفيا كانت تعتقد أن والديها لن يرغبا فى أن تقطع دراساتها بتلك الطريقة.

شعر حتب بالحزن: "إننى آسف من أجلكما" قال ذلك بمرارة، واستأنف: "خاصة بالنسبة لك يا مريم. إن النفوذ الشرير لكل أولئك الوثنيين قد تغلغل بعيدا فيك. ليس فقط هيپاتيا؛ إنك تستمعين كثيرا إلى إيزيس".

كانت مريم مستاءة، فتحدثت بجفاء: "أليست إيزيس هى التى كنت مجنونا بها؟"

قال حتب: "كنت أحبها، حتى رفضت بعناد أن تقبل المسيح. أردت أن أنقذ روحها لأننى كنت أحبها".

وتهدج صوته. كان مضطربا بشدة بحيث لم يستطع الاستمرار. وعرف أنه لن يستطيع أن ينجح مع مريم وصوفيا بأكثر مما نجح مع إيزيس.

تراجع بينما سارت مريم وصوفيا إلى الأمام. التفتتا إلى الخلف ولوحتا له مودعتين، واستمرتا فى سيرهما. لم يرد حتى على إشارتهما.

سبعة عشر

كان أمازيس واقفا محاطا بعدد من الزملاء خارج قاعة المحاضرات. رأى هيپاتيا قادمة. ترك أصدقاءه وتقدم نحوها، فسارت لتلتقى به. قالت وهى تضع يدها على كتفه: "مرحبا بعودتك يا أمازيس. إننى آسفة للغاية بخصوص والدتك العزيزة".

كان أمازيس غائبا فى بلدته أخميم، التى أطلق عليها الهيلينيون اسم پانوپوليس. كان قد استُدعى لرؤية والدته المريضة. ووصل فى الوقت المناسب لتلقى بركاتها ورؤيتها وهى تلفظ آخر أنفاسها. قال أفراد العائلة إن روحها كانت معلقة، رافضة الرحيل قبل أن ترى طفلها الحبيب، الذى يبلغ الثامنة عشرة الآن. وعند سماع كلمات هيپاتيا انحدرت دمعة على خده. ربتت هيپاتيا على كتفه برقة ثم اتجهت إلى قاعة المحاضرات.

أثناء محاضرتها، رأت هيپاتيا أن حتب لم يكن موجودا. وفيما بعد، فى طريقها إلى الخارج، أوقفت إيزيس: "إيزيس، هل تعرفين لماذا لم يظهر حتب اليوم؟" كانت إيزيس فى حالة انفعال شديد بكل تأكيد، حتى أنها لاقت صعوبة فى إخراج الكلمات: "لا فكرة لدى. آخر مرة كنا معا، منذ يومين، افترقنا بعد مشاحنة غاضبة". كانت مريم على مسافة يمكن منها سماعهما، فجاءت إليهما: "حتب لن يأتى هنا بعد ذلك. لقد تقدم للالتحاق بالمدرسة الكنسية".

لم يكن هذا مفاجأة بالنسبة لأى منهم، لكن إيزيس وجدت نفسها تختنق بالدموع. خفضت رأسها والتفتت لتذهب. وضعت هيپاتيا ذراعها حول كتف الفتاة. بكت إيزيس. أمسكت مريم بيدها وقالت: إننى آسفة، يا إيزيس، إننى آسفة حقا". ثم تنحّت جانبا. كان من الأفضل أن تتركها لعناية هيپاتيا الرفيقة.

قادت هيپاتيا الفتاة إلى مكتبها. وفى الطريق لم تتكلم. لم يخرج منها سوى غمغمات مهدئة. هى نفسها كانت تشعر بثقل فى روحها. وكان عقلها يحوم بعيدا، بعيدا فى زمن ماضٍ.

ثمانية عشر

فى الصباح الباكر كانت صوفيا بسبيلها للخروج إلى المدرسة. قالت تحية الوداع لأمها، وقبّلت أخاها الصغير الذى كان لا يزال نائما فى فراشه، وانصرفت. سارت المسافة الصغيرة حتى الناصية التالية ووقفت منتظرة أن تلحق بها مريم. كانتا دائما تقطعان الطريق الطويل من حى راكوتيس إلى المدرسة فى حى بروكيوم معا.

لم يمر وقت طويل قبل أن تظهر مريم قادمة نحوها. وحتى عن بعد شعرت صوفيا بأن ثمة شيئا غير مستحبّ. وبمجرد أن اقتربت مريم بما يكفى، سألتها صوفيا بقلق: "ما الأمر يا مريم؟ إنك على غير عادتك اللطيفة. ماذا حدث؟"

مريم: "فى الليلة الماضية تشاجرت مع ستيفانوس".

صوفيا: "خطيبك؟ إنه يبدو لى دائما لطيفا وطيبا".

مريم: "هذا لا علاقة له بشخصيته. إنه يشكو من أننى أهمل واجباتى الروحانية، ولا أذهب بانتظام إلى الكنيسة و.... أنت تعرفين الأمر كله".

صوفيا: "لكن هذا ليس سببا يدعو للتشاحن مع خطيبك. إذا كان الذهاب إلى الكنيسة بانتظام أكثر سوف يستعيد السلام بينكما، فافعلى من أجل خاطره وخاطرك".

مريم: "الأمر ليس بهذه البساطة يا صوفى. إنه يعرف ما وراء إهمالى. وهو لا يشعر بالرضا عن اتجاه طريقتى فى التفكير، ويشكو من أن تعاليم هيپاتيا تفسدنى. ليست لدى مشكلة فى الذهاب إلى الكنيسة من حين لآخر، أو حتى بانتظام، لكنى لن أدعه يعتبر هذا علامة على أننى أغير تفكيرى. فهذا سيكون خداعا".

صوفيا: "أوه، يا مريم، إن كان يحبك وتحبينه، وأنا متأكدة من هذا، فسوف يقبل كل منكما الآخر كما هو بمرور الوقت".

مريم: "لا، يا صوفيا، لا أظن أن هذا ممكن، ولا أظن أنه سيكون صوابا. إن دينه يعنى الكثير له، وحرية الفكر تعنى الكثير لى".

لم تعرف صوفيا ماذا تقول. كانت تعلم أن مريم جادّة فى قول ما قالت، وكانت تعلم أن مريم من الذكاء بحيث لا يمكن استرضاؤها بكلمات جوفاء.

وأنقذت مريم الموقف حين قالت: "دعينا نتحدث عن شىء آخر".

بعد يومين، عندما التقتا فى الصباح، قالت مريم فى نبرة تقرير الواقع: "لقد انتهى الأمر".

نظرت صوفيا إليها متسائلة.

أضافت مريم: "ذهب ستيفانوس إلى محل أبى بالأمس، وأعلن له رسميا أنه يعتبر خطبتنا منتهية. وقال له: 'أنا لا أستطيع أن أربط نفسى بشخصية باعت روحها للشيطان'".

شعرت صوفيا بالغضب والألم فى صوت مريم. واهتز صوتها هى نفسها وهى تقول: "هذا قول شديد القسوة منه لأبيك. لابد أنه قد سبب ألما شديدا لعمّى".

قالت مريم بهدوء: "إننى مسرورة لأن هذه العلاقة المضطربة قد وصلت إلى نهايتها المنطقية. إننى آسفة فقط بسبب الألم الذى سببته لأبى وأمى العزيزين".

وفيما بعد فى المدرسة، أبلغت مريم النبأ لهيپاتيا. وكررت كلمات ستيفانوس عن رفضه الارتباط بشخصية باعت روحها للشيطان. هذه الكلمات أغمدت خنجرا فى قلب هيپاتيا. وبمجهود حاولت ألا يخونها صوتها. وربتت برقة على خد مريم قائلة: "خير، كل الخير".

تسعة عشر

فى نهاية اليوم، تجمعت الدائرة المعتادة من الطلبة حول هيپاتيا. وأجابت عن بعض الأسئلة باختصار، ثم قالت أنها ينبغى أن تذهب. كان لديها ما ينبغى أن تقوم به. اتخذت طريقها إلى قصر الحاكم فى الحى الإدارى.

فى ذلك الصباح، عندما مرت هيپاتيا بليڤى القرطاسى، فى طريقها إلى المدرسة، لم يكن الرجل العجوز على طبيعته المستبشرة.

سألته هيپاتيا: "ألست بخير يا ليڤى؟"

"من الناحية الصحية أنا فى خير حال. حتى أفضل مما يمكن أن أتوقعه فى سنى هذه".

لكن الإجابة لم تكن تنم عن الرضا. كشفت النغمة الحزينة عن زيف الرضا البادى فى الكلمات.

ركزت هيپاتيا عينيها عليه فى تساؤل. أخرج ليڤى زفرة حرى. وتكلم. فمع هيپاتيا كان يستطيع الكلام بحرية. البطريرك المسيحى كيرلس لم يُخفِ أبدا مشاعره العدائية تجاه اليهود. والآن لم يعُد هناك شك فى أنه كان مصمّما على طرد كل اليهود من المدينة.

استمعت هيپاتيا، وشعرت بالألم لألم الرجل. لم يكن هناك الكثير مما تستطيع أن تقوله لتطييب خاطر الرجل العجوز، لكن، دون أن تتكلم، قررت أن تفعل شيئا. سوف تتحدث مع أورستس. وهكذا، بمجرد أن ذهبت إلى المدرسة، أرسلت كلمة إلى الحاكم بأنها سوف تمر على مكتبه بعد المدرسة.

فى العادة، كان يمكن أن تذهب لرؤية أورستس دون أن تضطر لإعلامه مسبقا. فقد كانا على صداقة وطيدة وكانت دائما محل ترحيب. لكنها اليوم أرادت أن تتأكد من أنه سيكون موجودا وأنه سوف يفرغ وقتا للاستماع إلى ما أرادت أن تتحدث بشأنه.

بدأت صداقتهما بمجرد أن تم تعيين أورستس حاكما رومانيا للمدينة. فى البداية كانت تزوره لبعض الشأن الإدارى المتعلق بالمدرسة أو ما إلى ذلك، لكن دائما ما كان الحديث يتطرق إلى مسائل الثقافة العامة والفلسفة. وسرعان ما اكتشفت، لسرورها، أن أورستس كان مهتما بشدة بأعمالهاالرياضية والفلسفية. وكثيرا ما كانا يتحدثان لساعات. لم تكن أفلاطونيتها الجديدة تتفق تماما مع مقاربته الأرسطية، لكن هذا الخلاف فى حد ذاته جعل لقاءاتهما الفكرية شديدة الثراء ومنعشة لهما. كثيرا ما كانت تفكر بحزن فى الفرق بين مبارزاتها الفكرية مع أورستس - مبارزات كانت تنتهى بهما هما الاثنين أكثر سعادة، وأفضل صداقة - ومناقشاتها مع شخص أحبته ذات يوم، ذلك الجدل الذى ثبُت أنه يدور بين عالمين لا اتصال بينهما، وانتهى بتنافر لا سبيل لمداواته. لكن هذه لم تكن أفكارها فى هذه اللحظة.

رحب بها أورستس بابتهاجه وحرارته المعتادين، لكنه كان يعلم من حقيقة أنها قد أبلغته مسبقا عن الزيارة أن ذلك لن يكون اللقاء الفلسفى المعتاد. وانتظر منها أن تتكلم، ولم تضيع وقتا. أخبرته بحديثها مع ليقى فى ذلك الصباح.

واختتمت قائلة: "من الواضح أن كيرلس يأخذ الأمور فى يديه، ويبدو أنه عازم على التحرك ضد اليهود. ينبغى أن تفعل شيئا تجاه هذا يا أورستس".

نظر أورستس نظرة خاوية إلى لا شىء للحظة، ثم قال باكتئاب: "ماذا يمكننى أن أفعل؟"

"إن لديك السلطة. أنت مسئول عن سلامة ورفاهية كل سكان المدينة ماداموا يطيعون القانون".

قال أورستس باستسلام: "لدى سلطة الدولة؛ لدى ذراع الدولة؛ لكن كيرلس يتحكّم فى قوة الغوغاء. لا أستطيع أن أخاطر بإثارة عصيان مدنى".

شعرت هيپاتيا بالحزن. ما هى فائدة كل فلسفتنا حول الخير والحق عندما نكون فى العالم الفعلى مستعبدين بقواعد أخرى؟

أزاحت هذه الفكرة بعيدا، وحاولت مرة أخرى: "العنف، والعنف المضاد بين المسيحيين واليهود فى ازدياد. فى البداية رأينا ذلك كفعل غير مسئول من الرعاع على الجانبين. لكن البطريرك كيرلس يشعل الموقف، ليس فقط فى الخطب، ولكن أيضا بتحريض وكلائه. إن رهبانه النطرونيين يعتبرون أنهم يشنون حربا مقدسة. بوصفك الحاكم المدنى، ينبغى أن تقول له أنه يتهدد سلام المجتمع".

تحدث أورستس ببطء، لم يكن الأمر مسألة بحث عن الكلمات، لكن لأن كل كلمة كانت مؤلمة فى نطقها. "أنا أشعر بالقلق والحزن مثلك تماما يا هيپاتيا. لكنك تعلمين أن علاقاتى بالبطريرك فى حالة توتر شديد بالفعل. إننى أخشى أن أى شىء أقوله له لن يأتى إلا بنتائج عكسية".

واستأنف أورستس قائلا: "إن واجبى تجاهك كصديقة، يا عزيزتى هيپاتيا، يفرض على أن أحذرك. ينبغى أن تكونى حريصة. إن البطريرك ينسب 'فسادى' أنا إليك. إن تعاليمك تحدث زلزلة بين المسيحيين. أعرف أنهم يتحدثون عنك كساحرة ذات قوى سحرية وسحر أسود. أنت تعرفين ما يمكن أن يؤدى إليه هذا".

هيپاتيا: "وماذا تريدنى أن أفعل؟"

أورستس: "إنك رياضية عظيمة يا هيپاتيا. ركزى لفترة على عملك فى الرياضيات. فهو أقل خطورة".

هيپاتيا: "إننى لم أهمل أبدا عملى فى الرياضيات. وفى محاضرات الرياضيات الخاصة بى لدى تلاميذ ممتازون يقومون بعمل رائع. وتعليقاتى على كتاب *Arithmetica* لـ ديوفانتوس والقطاعات المخروطية لـ أپولونيوس يتم دراستها فى أثينا وروما وقرطاجة، فى كل مكان. لكننى لن أتخلى أو أهمل حصصى الفلسفية. لن أخذل دارسى الفلسفة من تلاميذى".

كانت هيپاتيا تتحدث بحرارة. وكان أورستس يعرف أنها لا تستطيع أن تختار سبيلا آخر. وشعر بالأسف من أجلها. وبالغيرة أيضا. مع شعور عميق بالمهانة شعر أن هناك مسافة لامتناهية بين تغاضيها عن العواقب العملية استجابة لمبادئها، وخضوعه المحسوب للمقتضيات السياسية. كانا ينتميان لعالمين لا تكافؤ بينهما.

بعد أيام قليلة حدث الأمر. تجمعت حشود من المسيحيين المتعصبين واجتاحوا الحى اليهودى. نُهبت المعابد، وأُشعلت النار فى البيوت. وأولئك الذين لم يُقتلوا، رجالا ونساء وأطفالا، طوردوا حتى تم إخراجهم من المدينة. وفى الصباح التالى، فى قاعة المحاضرات، رأت هيپاتيا بحزن أن حنّة وباروخ لم يكونا حاضرين.

فيما بعد عرفت هيپاتيا أن أورستس حاول التعامل مع الموقف. قاد طابورا من الجنود فى محاولة لاستعادة السلام والنظام. لكن حشدا من الرهبان النطرونيين تغلبوا على جنوده. وجروه خارج عربته ورجموه بالحجارة. وكان من الممكن أن يُقتل بسهولة.

عشرون

كل المحيطين بهيپاتيا، أصدقاؤها، جيرانها، زملاؤها، تلاميذها، كان قلقهم فى ازدياد حول سلامتها. لم يُخفِ كيرلس رغبته فى أن يراها وقد أبعدت من الطريق. وانتشرت شائعات حول مؤامرة تحاك لها. وجاءت تقارير عن تلميحات فى أماكن عليا، وتهديدات صريحة. وكانت هيپاتيا وحدها تبدو غافلة عن كل هذا.

وقبل ثلاثة أيام، أرسل أورستس إليها مذكرة عاجلة مع رسول خاص يحثها على أن تكون حذرة. وأصرّ على أن تتخلى عن عادتها فى السير إلى المدرسة ذهابا وإيابا. ونصح بأنها ينبغى أن تستخدم المركبة فى كل تحركاتها وأن يصحبها حارس دائما. وتكررت توسلات تلاميذها لها بالحذر وأن تأخذ التهديدات الموجهة إليها بمزيد من الجدية.

جاءت مريم إلى مكتبها. وكانت بكل تأكيد فى حالة اضطراب.

شعرت هيپاتيا بقلق مريم، وسألتها: "ما الأمر يا مريم؟"

قالت مريم: "من فضلك يا هيپاتيا، من فضلك كونى حذرة. لو آذاك هؤلاء المتعصبون فسوف أشعر بأننى مسئولة شخصيا. ولن أسامح نفسى أبدا".

هيپاتيا: "أوه، مريم يا عزيزتى، لا تقلقى علىّ. لقد كانوا يرموننى بالوحل منذ وقت طويل جدا. ما الذى يمكن أن يفعلوه غير هذا؟"

مريم: "أولئك الذين دمروا الموسيون لن يتورّعوا عن شىء".

كانت مريم تبكى. واستمرت: "أعرف ضراوتهم. أعرف جنونهم. أقسم.. أقسم... لو آذاك هؤلاء الرهبان النطرونيون، فسوف أعلن خروجى عن الكنيسة وكل ما تمثله. لو آذوك، لا أهتم إن كنت أموت أو لو عذبونى حتى الموت".

قامت هيپاتيا من مقعدها، ووضعت ذراعيها حول مريم، التى كانت الآن تنتحب، وتحدثت إليها تهدئها: "كفى يا مريم، اهدئى. لقد استسلمت بالفعل لنصيحة أورستس وأرسلت لإحضار مركبتى. ولن أعود إلى بيتى مشيا".

مريم: "ربما لا يكون هذا كافيا. هيپاتيا، ينبغى أن تتركى هذه المدينة، على الأقل لفترة. اذهبى إلى أثينا أو روما. ليس إلى القسطنطينية، لا. هيپاتيا، إنك أكثر أهمية من أن تعرضى نفسك للخطر. لابد أن تحافظى على نفسك، ليس فقط من أجلنا نحن تلاميذك الذين نحبك، ولكن من أجل الإنسانية كلها".

ربتت هيپاتيا عليها برقة، وأمسكت بذقنها، ناظرة بحب إلى عينيها الدامعتين، وقالت برقة: "اذهبى الآن. عربتى سوف تكون هنا حالا لأخذى إلى البيت. اذهبى".

واحد عشرون

صعدت هيپاتيا إلى مركبتها، وتحركت العربة مبتعدة. قبل أن يمر وقت طويل، كان من الممكن سماع ضوضاء عاصفة. كان يبدو أنها ليست بعيدة. نظر كريستوفوروس إلى يساره وإلى يمينه، لكن قبل أن يرى إلى أين يمكن أن يدور بالعربة بأمان، عند أحد الأركان، جاءت أمواج الرهبان النطرونيين وتبعهم الغوغاء. وسرعان ما أحاطوا بالعربة.

فُتح باب العربة.

امتدت الأيدى إلى الداخل.

نظرت هيپاتيا إلى الحشد، ورأت وجها واحدا.

كلمة واحدة همست بها: "أنت؟!"

كانت الكلمة الأخيرة التى نطقت بها أبدا.

جروها إلى أسفل.

مزقوا ثيابها.

جروها عارية.

دفنت الأقدام الدم المنساب.

دخلوا بها إلى الكنيسة.

مزقوا لحمها بشقفات الخزف.

أحرقوا جسدها الممزق.

أحرقوا كتبها.

سقط الظلام.

خاتمة

والكتاب الذى سقط من مريم

خاتمة

ببطء، غاص القرص الأحمر الدامى للشمس الغاربة

وراء جبل من السحب الداكنة

وعلى صخرة ناتئة فوق البحر النائح

وقفت مريم تحدق بعينين لا تريان

وكتاب تضمه إلى صدرها.

غاص طرف القرص الأحمر فى عمق العتمة

وتركت مريم الكتاب يسقط؛

وغاصت فى عمق النواح

الكتاب الذى سقط من مريم

على رأس الصفحة الأولى من الكتاب كانت هذه الكلمات:

"هنا أسجل ما أذكره من محاضرات هيپاتيا، ومحادثاتها، وإجاباتها على الأسئلة، وما إلى ذلك. وقد أكون أضفت هنا وهناك كلماتى الخاصة أو أفكارى الخاصة. ولا أقول أنها تخصنى. إننى أدين بها كلها لهيپاتيا".

عندما التقطت الكتاب، كان منقوعا فى مياه المطر. كثير من الصفحات، وكثير من الفقرات الحبر قد شف فيها ولا يمكن قراءتها. أما ما كان واضحا، أو ما استطعت أن أتبيّنه بدرجة مقبولة من اليقين، فقد أعدت كتابته بقدر ما أستطعت من دقة.

من محاضرات هيباتيا حول أسطورة إيزيس وأوزيريس:

لكى أريكم كيف أربط بين محاورة پارمنيدس لأفلاطون وأسطورة إيزيس وأوزيريس ينبغى أولا أن أريكم قراءتى لـ پارمنيدس. ولكن مرة أخرى، قبل أن أريكم كيف أقرأ الـ پارمنيدس، ينبغى أن أشير إلى محاورة ليزيس Lysis، والتى فى رأيى تقدِّم الرسالة الجوهرية لمحاورة پارمنيدس فى كبسولة. إن موضوع ليزيس هو الصداقة، ليس كمبدأ أخلاقى، ولكن كعلاقة. وتبدأ المحاورة كأى محاورة أخرى من المحاورات السقراطية، لكن أفلاطون بعد ذلك ينطلق فى أجوائه الخاصة.

فى الـ ليزيس نجد أفضل تمثيل لمبدأ الزوال لكل واقع فعلى معيَّن، والذى وجدناه فى الأسطورة متمثلا فى نفتيس. انطلاقا من فحص فكرة العلاقة تتقدم المحاورة لتكشف نسبية كلّ ما هو محدّد. ومن ثم، أرى أننا نجد فى الـ ليزيس المفتاح لفهم محاورة پارمنيدس.

بعد الحديث التربوى الأول مع ليزيس، يبدأ البحث الأولى فى معنى الصداقة باستكشاف غوامض كلمة "فيلوس" philos. لكن هذا ليس ببساطة خطابا تحذيريا ضد الإبهام اللغوى - فلا شيء فى أفلاطون أو فى الفلسفة يمكن أخذه "ببساطة". اكتشاف السيولة التى لا مفر منها لكل اللغة يأتى معه بفكرة أنه مثلما أن كل الكلمات، فكذلك كل الأشياء التى تعنيها الكلمات، لا تكون أبدا "هذا" محدّدا أو "ما" محدّدا، وإنما هى بؤرة علاقات تنتشر ممتدّة إلى كل كينونة. وقد نجد التعبير الصريح لهذه الرؤية يتطور ويتفتح ببطء خلال المحاورات، لكننى أراه كتيار تحتى يجرى بثبات بدءا من المحاورات السقراطية، وخلال محاورات الـ فايدون، والـ سيمبوزيوم، والـ جمهورية، حتى يظهر فى الآفاق الرحبة لـ صوفيست والـ تيمايوس - وحتى فيما بعد ذلك، عند أفلوطين.

عندما أقول أنه لا توجد كلمة لها معنى محدد بصورة قاطعة، قد يقول شخص ما إن أسماء المعادن على سبيل المثال، مثل الذهب أو الحديد، تخلو من الابهام. وأجيب بأن مثل هذه الكلمات ليست معانٍ بل مؤشّرات. إنها تحوز معنى مستعارا بالإشارة

إلى عيّنة أو إلى سياق واقعى ـ عيّنة أو سياق لهما كل السيولة وعدم الدوام الذى هو سمة لازمة لكل وجود واقعى. إن أى مقولة عامة عن الذهب أو الحديد ذات مصداقية جامعة تكتسب تلك المصداقية على حساب التجريد، أى بإبعاد نفسها عن المحدودية التى هى شرط الواقعية.

والجزء الديالكتيكى تماما من الـ ليزيس يبدأ عند النقطة التى يقول فيها سقراط أن الشىء الذى كان دائما يتمناه قبل أى شىء آخر هو أن يكون لديه صديق. ويستمر قائلا: كم أنا بعيد عن أن يكون لى هذا، حتى أنى لا أعرف .... ولكن بدلا من أن يقول، كما فى المحاورات السقراطية: أنا لا أعرف حتى ما هى الصداقة أو ما هو الصديق، فإنه يقول: لا أعرف حتى بأى طريقة يصبح الصديق صديقا لآخر. يقصد أفلاطون بكل وضوح أن يثير قضية تختلف جوهريا عن القضية التى يتناولها فى الـ يوثيفرون، أو الـ لاخيس، أو الـ خارميديس، أو الباب الأول من الـ جمهورية. المناقشة التى تلى ذلك توحى، وأعتقد أن هذا الإيحاء مقصود، بالمبدأ الذى يتم التعبير عنه صراحة فى محاورات صوفيست، وتيمايوس، وفيليبوس، وهو: لا شىء أبدا فى حد ذاته هو مجرد ما هو فى حد ذاته: كل شىء له كينونته الحقيقية ومعناه الحقيقى فى العلاقة المتبادلة بينه وبين كل شىء آخر، بكل ما هو كائن. هذا هو المبدأ الذى تقوم عليه المقولة التى يؤكدها أفلاطون فى الـ جمهورية: "ذلك الذى يرى الأشياء ككلّ يكون فلسفيا، ومن لا يراها كذلك فليس كذلك". هذا أيضا هو الدرس الذى تقوم عليه الـ پارمنيدس، وهذا هو البعد الميتافيزيقى للـ پارمنيدس.

ومن المحتمل أيضا أن أفلاطون كان، فى نفس الوقت، يفكر فى المسألة المنطقية للمنسوبات والحدود النسبية. لكنى أعتقد أن البعد الميتافيزيقى والرؤية الميتافيزيقية أكثر جوهرية فى كل من الـ ليزيس والـ پارمنيدس.

ومن ثم فإن الـ ليزيس بكليتها، بعد الحديث التربوى، ترينا أن كل مقولة ـ والتى يمكن فى الأصل أن تكون تعبيرا عن منظور صادق ـ عندما تتدرّج متجاوزة سياقها الأصلى، أو عندما يتم سحبها خارج هذا السياق، يمكن نقضها.

هكذا، بعد أن قدم أفلاطون فكرة أن ذاك الذى هو لا خيّر ولا شرير هو وحده الذى يمكن أن يسعى لما هو خير - وهى صياغة أثيرة عنده - وبعد أن قدم وفسّر بعناية الفرق بين ما كان أرسطو سوف يسميه الخاصيّة والعَرَض، وبعد أن أعلن النتيجة بنبرة منتشية، يجعل سقراط فجأة ينكص، خشية أن يكون الأمر كله ليس إلا حلما. أعتقد أن هذه الفقرة أراد بها أفلاطون أن ينقل إلينا أهم درس جوهرى فى الفلسفة: لا تركن أبدا إلى الوهم بأنك قد وضعت يدك على الصدق التام!

وهكذا، فيما يلى ذلك ينقض سقراط كل النتائج السابقة. فى حيّز صفحة واحدة، يقدم أفلاطون مشكلة الارتداد اللامتناهى (التى أشير إليها باختصار فى الـ جمهورية، وتأخذ وضعا بارزا فى الـ پارمنيدس)، والفكرة الخصبة للخير النهائى أو المطلق، ممتزجتان معا. تحمل فكرة الخير النهائى معها فكرة نسبية كل خير محدّد، والتى ترتبط بدورها بفكرة نقصان وعدم كفاية كل ما هو محدّد، ومخصوص، ومحدود. كل خير محدّد هو خير كوسيلة لشىء آخر. وفى النهاية لا يكون خيرا بذاته إلا الفاعلية نفسها، الإبداع، توكيد وتحقيق الخير بشكل متواصل.

ثم، بالتفافة لعوب فى استخدام الحُجة، يلاطف سقراط الصبيين مينكسينوس وليزيس، والفتى الأكبر قليلا، هيپوثالس، باستخراج نتيجة هى ليست أردأ من سابقاتها ولكنها أيضا ليست أحسن من سابقاتها، كما يبادر سقراط نفسه على الفور لإظهار ذلك. وكما فى كل المحاورات السقراطية، تنتهى المحاورة، فيما يظهر، بحالة من الحيرة الكاملة.

* * *

قبل أن أحاول أن أريكم كيف أُحمِّل أسطورة إيزيس وأوزيريس برؤية الـ پارمنيدس، دعونى أقول أننى أرى محاورة پارمنيدس باعتبارها اتحادا ديالكتيكيا لرؤية كلٍ من الفلسفة الهيراقليطية، والفلسفة الپارمنيدية. أدرك هيراقليطس أن كل وجود للظواهر، كل واقع معيّن، كل "هذا" وكل "ما"، هو أمر زائل وهارب. وهذا أسميه

مبدأ الـ زوال. يبيّن لنا پارمنيدس الوجه الآخر من العملة: أن يكون الشيء حقيقيا ومعقولا، معناه أن يكون دائما وكاملا وكُلاً. هذا مطلب أوّلي للعقل، وهو المطلب الذى أسميه مبدأ الـ معقولية. أن يكون شيء ما متحولا يعنى أن يعلن بذاته لاحقيقية ذاته، وأن يكون الشيء لامكتملاً، يعنى إظهار حاجته لما ليس هو، فالمتناهى يتطلب الاكتمال ليكون معقولا. وهذا أسميه مبدأ الـ تكامل. رأى أفلاطون أننا لسنا فقط غير قادرين على الهروب لا من رؤية هيراقليطس ولا من رؤية پارمنيدس، ولكن أيضا أن كلا من هاتين الاثنتين تتطلّب الاكتمال بالأخرى. بدون المبدأ الپارمنيدى فإن العالم الذى نعيش فيه يكون غير معقول. وبدون المبدأ الهيراقليطى يكون العالم استحالة تهزأ بالعقل. هذا هو درس الـ پارمنيدس باختصار. الـ واحد لابد أن ينتج الـ متعدد، وإلا فإنه لن يكون حتى واحدا. والـ متعدد لابد أن يكون واحدا وإلا فإنه ليس فقط لن يكون معقولا بل إنه لن يستطيع حتى، ببساطة، أن يكون. وكل فرضية من الفرضيات الموجودة فى الـ پارمنيدس هى تنويع من هذا الاتحاد الديالكتيكى لرؤية كلٍ من هيراقليطس وپارمنيدس. وقد رأى أفلوطين هذا بوضوح شديد.

بينما وجد أفلوطين فى محاورة پارمنيدس معنى عميقا، وجدها كثير من الباحثين مثيرة للحيرة. بالنسبة لى تبدو رسالتها واضحة بمنتهى الشفافية. إذن لابد أن يكون ثمة شيء محيّر فيها بالفعل. ربما يكمن التفسير فى البراعة التى يتمكّن بها أفلاطون من الاحتفاظ بالبعد الميتافيزيقى أو التضمينات الميتافيزيقية مغمورة تماما تحت البعد المنطقى أو التضمينات المنطقية.

لا يمكن الفصل بين النواحى أو الأبعاد المنطقية والميتافيزيقية لمحاورة پارمنيدس. إنهما لم يكونا بالنسبة لأفلاطون منفصلين أو قابلين للفصل. كما عند پارمنيدس، كذلك هو عند أفلاطون، أن يُعقل وأن يكون هو ذات الشيء. ايّا ما كان لدى أفلاطون فى مقدمة اهتمامه عندما كتب الـ پارمنيدس - ويبدو أن المسائل المنطقية كانت تشغل فكر أفلاطون كثيرا فى سنواته الأخيرة التى يحتمل أنه كتب فيها الـ پارمنيدس - فإن نغمة الأساس الأونطولوجية لا يمكن أن تكون قد غابت عنه فى أى لحظة. إن الدلالات

الميتافيزيقية التى استطاع أفلوطين أن يراها فى الجزء الثانى كانت جوهرية فى المنظور الفلسفى لأفلاطون.

كان لكل من هيراقليطس وپارمنيدس رؤية عميقة لطبيعة الأشياء ، لكن رؤية كلّ منهما كانت ضدًا لرؤية الآخر. كان هيراقليطس يرى أن كل الأشياء فى العالم حولنا متلاشية، تتحول بلا توقف. على حدّ ما يقول أفلاطون فى الـ تيمايوس، لا يمكنك حتى أن تقول عن أى شىء معيّن "هذا" أو "ذاك"؛ كل ما يمكنك قوله هو "ها هنا حالٌ ما"، وبينما تقولها، يكون الحال قد استحال حالا مختلفا.

رأى پارمنيدس أنه بالنسبة لعقل يتطلب المعقولية والفهم، فإن كينونة الـ لامكتمل، المحدّد المحفوف بالحدود والنوافى، المتحوّل، هى بالضرورة محل مساءلة. كيف يمكن للـ لامكتمل أن يكون؟ بالنسبة للعقل كل كينونة سرّ، إلا أن كينونة الـ لامكتمل هى إهانة للعقل تتركه فى التياع دائم. إذ أنه بالنسبة لپارمنيدس أن يُعقل وأن يكون هما ذات الشىء. ومن ثم فإن ما هو كل وكامل وحده يمكن أن يكون. كل ما يقوله پارمنيدس بعبارات محدّدة فى تشخيص "الـ واحد الذى هو كائن"، هو مجاز وأسطورة، ولا يمكن أن يكون إلا ذلك، إذ كيف يمكنك أن تحدد أو تشخّص ما وراء كل السمات المحدّدة؟ إن الجوهر هو هذا فقط: ما هو كلٌ وكامل وحده يمكن أن نراه كحقيقة.

أخذ أفلاطون رؤية كل من هيراقليطس وپارمنيدس ولم يغمض عينيه أو ينصرف أبدا عن أيهما. لكن لم يكن من الممكن أن توجدا جنبا إلى جنب فى عقل واحد دون مواءمتهما. ووجد أفلاطون تلك المواءمة فى منظور سقراط للعالم حيث يميّز بين مجال المعقول من ناحية ومجال المحسوس من ناحية أخرى _مجال المعقول الذى يضفى على المحسوس حقيقته ومجال المحسوس الذى يعير المعقول واقعيته. ومثلما وجد أن صيرورة هيراقليطس ينبغى أن تُغمر بأشعة المعقول لكى يكون من الممكن أن يدركها الفكر، كذلك وجد أن واحد پارمنيدس لابد أن يقبل مهانة المرور من خلال زوال وتناقضات الوجود الواقعى إن كان له أن يصبح شيئا بالنسبة لنا نحن العقول الخاصة المحددة.

إن لغة الميلاد والتوالد أصيلة فى فكر أفلاطون. وفكرة الإنجاب فى الجمال، والتى يقدمها فى الـ سيمپوزيوم، أساسية فى فهمه للحقيقة والعقل. إلا أنه عند القطب الآخر يوجد مفهومه عن خلود الصور ـ الصور غير المتحوّلة، غير القابلة للتغيّر. إن نار هيراقليطس التى تلتهم كل شىء وتقضى بالسيولة والزوال على كل الموجودات، هذه النار تناهض الدوام السائد للـ واحد الپارمنيدى، ومن ذلك الصدام تفجّر ديالكتيك الـ پارمنيدس النافى لكل شىء.

* * *

المعقول هو فى طبيعته الذاتية متجاوز للزمن، وبهذا المعنى فهو أزلىّ. لكنه يدخل فى الكينونة وتزول عنه الكينونة. الفكرة الأصيلة، أو القصيدة، أو الأغنية، أزلية، إلا أنها تولد وتزول. لا شىء محدد يدوم، فكل موجود زائل.

إن الوضوح الذاتى لفكرة أو مبدأ لا يهبه التمام. الوضوح الذاتى لفكرة أو مبدأ يعنى أنه ليس بحاجة إلى تبرير ويمكن أن تنبثق عنه نتائج منسجمة ومتسقة. كل نظام فلسفى جيّد هو تفَتّحٌ لمثل هذه الأفكار والمبادئ ذاتية الوضوح. لكن الفكرة أو المبدأ ذاتى الوضوح يمكن دائما أن يوضع فى سياق أوسع أو سياق مختلف، وعندئذ يظهر أنه غير مكتمل. فكرة الجمال ليست بحاجة لأن تُستمدّ من مبدأ أعلى، والصعود إلى فكرة الجمال فى الـ سيمبوزيوم هو صعود إلى الحقيقة النهائية.

وفقا لـ جمهورية، حسب فهمى، فإن الديالكتيك، إذ يدمّر كل الافتراضات، لا يُراد منه أن يقود إلى أو أن ينتهى إلى أية مبادئ أولى، ولكن إلى بُعْد جديد لمبدأ الجهل السقراطى. الديالكتيك، بوصفه الممارسة الأعلى للعقل الفاعل، ينتهى بكشف أنه لا صياغة محدّدة للفكر يمكن أن تكون صادقة على نحو قاطع: إن الحقيقة الوحيدة هى ذات فاعلية العقل. وعندما نفهمها هكذا، نجد أن الجوانب المنطقية والميتافيزيقية للـ پارمنيدس لا يمكن فصلها عن بعضها. وحتى لو افترضنا أن الجانب المنطقى كان هو الأعلى، أو حتى الوحيد، فى ذهن أفلاطون عندما كان يكتب الـ پارمنيدس، لا نستطيع

أن نعتبر أفلوطين مخطئا إذ وجد الملامح الميتافيزيقية التى أعطى لها تعبيرا أصيلا فى فلسفته مكتوبة بوضوح فى الـ پارمنيدس.

إذن، فإن تمحيص الصور فى الجزء الأول من محاورة پارمنيدس ليس انتقادا لمفهوم سقراط عن الصور المعقولة، والذى كان أساسا لكل وجهة النظر الفلسفية لسقراط وأفلاطون، ولكنه امتحان نقدى، لتطويرات وتفريعات تجريبية معينة للمفهوم. وأرى فى تقديم جدليّة زينون(*) فى القسم الافتتاحى إشارة تدل على الهدف والغرض من المحاورة كلها. كانت الواحدية العقلانية عند پارمنيدس قد لقيت هجوما من خصومه باعتبارها تنطوى على تناقضات لا مهرب منها. وكان زينون، كما يقول صراحة فى المحاورة، يرد على الهجوم، لا بأن يجادل دفاعا عن موقف پارمنيدس، ولكن بإظهار أن موقف الخصوم يؤدّى بالمثل إلى تناقضات مدمرة. فماذا نستنتج من هذا؟ الـ واحد الپارمنيدى مثل الـ خير فى الـ جمهورية - الذى يتجاوز الكينونة ويتجاوز المعرفة - لا يمكن، إطلاقا، وصفه بأى عبارات محدّدة. وهكذا، فحتى توكيدات "طريق الصدق" ما كان من الممكن السماح بها إلا بتنازل خاص. إن جوهر الـ حقيقة لا يمكن قطعًا البوح به: لا يمكنك أن تحتوى ما هو كامل فى قوالب الفكر واللغة التى، بطبيعة ذاتها، لابد أن تكون محدودة، ومحددة، وناقصة. ويجد أفلاطون فى مبادرة زينون توكيدا لمفهومه الخاص بالديالكتيك كتدمير لكل الفرضيات (المسَلّمات): فليس ثمة صياغة محددة للفكر منيعة ضد التفنيد المنطقى. وفيما يلى من المحاورة نرى تطبيق هذا المبدأ، أولا على صياغات مختلفة تستخدم مفهوم الصور المعقولة، ثم على صياغات مختلفة تستخدم مفهوم الـ واحد أو الـ كينونة. إذا كان الأمر كذلك، فكيف نستطيع رغم ذلك أن نقرّر أنه يمكن أن نتبين فى جدليات الـ پارمنيدس رؤىً ميتافيزيقية؟ الإجابة بسيطة: إذا كنا نفحص مفهومنا لـ كينونة (الـ حقيقة)، كيف يمكن ألا ننظر فى ذات الوقت فى ما تعنيه

(*) زينون من إيليا (زينون الإيلى) (تقريبا ٤٩٠ ق.م - تقريبا ٤٣٠ ق.م؟) أحد فلاسفة ما قبل سقراط عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو من أنصار پارمنيدس فى أن عالم الحس وهم باطل. ويعتبر زينون الإيلى مخترع الجدل الفلسفى، وقد قال أرسطو عنه أنه مؤسس علم الجدل، من حيث أنه كان يسلم بإحدى قضايا خصومه ويستنتج منها نتيجتين متناقضتين ويثبت بذلك بطلانها.

الـ كينونة (الـ حقيقة) بالنسبة لنا؟ فإن پارمنيدس قد تكلم حقا: إن المعقول والحقيقى نفس الشىء.

بيّن معارضو پارمنيدس أن مفهومه عن الـ واحد يؤدى إلى تناقضات. وبيّن زينون أن افتراض التعدد فى الأشياء يؤدى إلى تناقضات. هذا لا ينبغى أن يعنى نهاية الحوار العقلانى. فالمبدأ الذى يقرّر أن كل الصياغات المحددة للفكر تنطوى على تناقض، معرض للتعسف فى اتجاهين: من ناحية يمكن أن يؤدى إلى لاعقلانية أنتيستينس(*) الانتحارية، ومن ناحية أخرى يمكن أن يؤدى إلى الجدلية المفسدة لأمثال يوثيديموس. إن تدمير كل المسلّمات الذى يتطلبه الديالكتيك ضرورى لتحرير عقل الإنسان من عبودية المفاهيم المسبقة، والتحيّزات، والخرافات، فى كل المجالات: فى العلوم، والدين، وحتى فى المعاملات العملية للحياة اليومية. ولكن لكى نعيش، ينبغى أن نعمل، وأن نفكر، وأن نصوغ النظريات، وأن نضع القواعد والمبادئ، ولا بد من أن يكون الأساس لكل هذا أفكارا معينة "مقبولة" ـ مقبولة ولكن غير منيعة أمام الفحص والهدم إن احتاج الأمر.

يُجمل سقراط جدلية زينون: إذا كانت الأشياء متعددة، فسوف تكون بالضرورة متشابهة وغير متشابهة معا. (بصرف النظر عن الطريقة التى أثبت بها ذلك). لكن الأشياء المتشابهة لا يمكن أن تكون غير متشابهة، والأشياء غير المتشابهة لا يمكن أن تكون متشابهة. وإذن فإن الأشياء لا يمكن أن تكون متعددة. يقول سقراط عن حق أن زينون كان فقط يكرر أطروحة پارمنيدس فى صياغة مختلفة. فقد قال پارمنيدس أن الكينونة، الحقيقة، هى واحد، وأن الـ واحد هو كل ما هو كائن، وهكذا فإن المتعدد لا يمكن أن تكون له كينونة. واحتجّ زينون بأن كينونة المتعدد تنطوى على مستحيلات. كان أفلاطون يعلم أن أى مقولة يمكن تكذيبها. وهذا هو لُبّ ما تقوله الـ جمهورية حول

(*) أنتيستينس: (Antisthenes) ، عاش تقريبا ٤٤٥-٣٦٥ ق.م، كان فيلسوفا يونانيا وتلميذا لسقراط. تبنى وطور الجانب الأخلاقى من تعاليم سقراط، مدافعا عن حياة زاهدة يعيشها الإنسان فى الفضيلة. وفيما بعد أصبح يعتبر المؤسس للمذهب الساخر التشاؤمى فى الفلسفة Cynic philosophy .

الديالكتيك. وتفنيد هذا الموقف أو ذاك لن يوصلنا إلى شيء. إن المتعدد - كل الموجودات - مصابة تماما بالتناقض. لكنها هناك؛ إنها تحدق في وجوهنا؛ نحن أنفسنا جزء من تلك الكينونة التي هي ليست كائنة. ليست مهمة الفلسفة إظهار، أو أن تقف عند إظهار، أن الموجودات الخاصة المحددة ليست كائنة، ولكن أن تبيّن كيف ولماذا يكون الأمر كذلك. هذا هو ما تفعله فلسفة أفلاطون بكليتها، والتي تصل إلى الذروة في الـ جمهورية، عندما تكشف أن عالم الوقائع المعطاة بكامله عبارة عن ظل واه وصيرورة زائلة تستمد الحقيقة فقط في أزليّة العقل الخلاق. هذه هي صياغتي، لكنني أعتقد أنها لا تزيف رؤية أفلاطون. ولا تضيف محاورة پارمنيدس شيئا إلى جوهر فلسفة أفلاطون. إنها فقط تبين أننا إذا بدأنا من الـ كينونة الپارمنيدية، والـ واحد الپارمنيدي، فإننا نجد، كما وجدنا في الـ جمهورية، أن الكينونة الناقصة للموجودات تنشأ من الـ واحد. الـ واحد يلِد، يُنجِب، المتعدد. والمتعدد بدون الـ واحد استحالة؛ والـ واحد بدون المتعدد لا يُعقل. هذا أفلوطين، ولكنه ينبثق من أفلاطون بالضرورة كما ينبثق المتعدد من الـ واحد في الـ پارمنيدس.

يمضي سقراط ليواجه المشكلة. الموجودات، سواء كانت واحدا أو متعددا، تتفشّى فيها التناقضات. فيما بعد، يبدأ الـ واحد في التكسّر بمجرد أن نؤكد أنه كائن، أو أنه واحد. لكننا لدينا المفاهيم، الصور المفهومة، مفاهيم التشابه واللاتشابه، مفاهيم الوحدة والتعدد. هذه الأفكار، من حيث هي، مستقرة، لامتغيّرة. لكن لا شيء يمنع من أن توجد متجاورة في الأشياء. التشابه ليس هو اللاتشابه؛ الوحدة ليست التعدد. لكن المتشابه يمكن أن يكون غير متشابه، وكما سيبيّن پارمنيدس في المحاورة، سواء قلنا إن الـ واحد متعدد، أو أن الـ واحد لامتعدد، أو قلنا إن المتعدد واحد، أو أن المتعدد ليس واحدا، فإن كل هذه المقولات (الفرضيات) يمكن إظهار أنها صادقة ومن الممكن أيضا إظهار أنها كاذبة. وهذا يلخص الجزء الثاني من محاورة پارمنيدس.

جدليّات زينون الإيلي أظهرت ليس فقط عدم كفاية كل الصياغات اللغوية، ولكن عدم كفاية وتناقض كل واقع محدّد. وهذا هو الدرس المنطقي - الأونطولوجي لـ پارمنيدس.

* * *

المفارقة هى الصدمة التى تعلن أن مفهوما ما قد استباح أن يضم أرضا ليس له فيها حق شرعى. أو، مع تغيير المجاز يمكن أن نقول: كل مفهوم هو خيال؛ وحين ينسى الخيال الاتضاع الملائم للاجوهريّته، يبين الـ عقل أنه ليس إلا فقاعة تنفجر بفرقعة عالية. وبدءا من ألغاز زينون حتى "الإنسان الثالث"(*) وما بعده، لن نجد إلا مفاهيم خياليّة مفيدة تتخطى صلاحيتها الحقّة.

والجزء الثانى من الـ پارمنيدس هو بكامله كما يقول أفلاطون بوضوح، مجرد تدريب فى الديالكتيك (بالمعنى المقصود فى الـ جمهورية) - تدريب لإظهار درسَىْ الديالكتيك الأساسيين المتلازمين: (١) من الناحية المنطقية، لا توجد مقولة محددة صادقة ببساطة؛ لا توجد مقولة محددة يمكن أن يجوز لها الزعم القاتل المتعجرف بأنها تامّة؛ فإن حدث ذلك، يمكن دائما إثبات أنها زائفة؛ ولفهم أى مقولة علينا أن نراعى ليس فقط ما تقوله، ولكن أيضا ما لا تقوله. (٢) من الناحية الميتافيزيقية، لا يوجد شىء معين، متناه، محدد يمكن أن يزعم ببساطة أنه كائن؛ ففى حد ذاته وبذاته لا يمكن أن يمتلك معقولية الحقيقة؛ يمكن دائما أن يوجه إليه السؤال: "من أين جئت ولأى غاية جئت؟" ولكى يتبرّر يجب محو واقعيته المعينة، المتناهية، المحددة بشىء غير ذاته. وكل هذا ليس إلا نِتاج ما بذرته المحاورات السقراطية.

أستطيع أن أفهم كيف استطاع أفلوطين أن يجد كل فلسفته مكتوبة بوضوح بين سطور الـ پارمنيدس. فأنا أيضا شاركت فى تجربة أفلوطين.

إن خطأ الأفلاطونية الجديدة، وخطأ أفلوطين نفسه إلى حد ما، هو محاولة إضفاء الثبات على رؤىً لا يمكن التعبير عنها إلا عن طريق مجاز شارد، أو حُجة تُبيد ذاتها بذاتها. كان ينبغى أن يتعلموا من أفلاطون، خاصة من الـ جمهورية ومن الـ پارمنيدس نفسها، أنه لا يمكن لصيغة محددة من الفكر أن تدعى لنفسها صلاحية حاسمة وقطعية.

(*) الإنسان الثالث: هذا التعبير يشير لإحدى الإشكاليات الفلسفية التى دار حولها جدل كثير عبر أربعة وعشرين قرنا من الزمان، ففى محاورة پارمنيدس يقدم أفلاطون نقدا فلسفيا لنظريته الخاصة بالصور، مفترضا أنه إذا كان الإنسان إنسانا لأن له صورة الإنسان، فلا بدّ من صورة ثالثة مطلوبة لشرح كيف يكون الإنسان وصورة الإنسان كلاهما له صورة الإنسان.

على امتداد حُجج الجزء الثانى من الـ پارمنيدس، نجد عبارات مثل "بمعنى ما"، "ولكن ليس بكل معنى"، "من حيث هو"، "بقدر ما"، ويستخدم أرسطوطاليس الصغير فى ردوده تعبيرات مثل: "يبدو أن الحُجة تؤدّى إلى هذه النتيجة"، "يبدو أنه من الممكن أن نحتجّ بهذه الطريقة". هذا جزء أصيل وأساسى من درس المحاورة. ويمكن النظر إلى المحاورة ككل باعتبارها تحذيرا ضد ما أسميته فى مكان آخر غدر الكلمات. لا توجد مقولة يمكن قبولها دون تحفظ، مهما كانت دقيقة فى تركيبها، ومهما كانت العناية المبذولة فى إحاطتها بالتحفّظات المقيّدة للمعنى.

وهكذا، إذا سلّمنا عقلنا الحى دون تحفظ للكلمات أو لمنطق ينسى حدوده التى لا مهرب منها، فعندئذ، كما تبيّن محاورة پارمنيدس فى ختامها، أيّا ما افترضنا أنه صواب أو غير صواب، سوف يبدو أن كلا من الـ واحد والـ متعدد ـ كل منهما فى علاقته بنفسه وبالآخر ـ يكونان كل الأشياء، ولا شىء.

* * *

فى الـ پارمنيدس، كل الصياغات المحددة تؤدى إلى نقيضها؛ بالضرورة، حيث أن أى صياغة محددة أساسها نفى. ما هو كائن ـ أىّ موجود محدد، متناهٍ ـ هو ما هو بكونه غير ما ليس هو، وبالتالى فإنه ليس كائنا حقا لأن ما هو كائن حقا هو الـ كلّ، هو كلّ ما هو كائن. محاورة پارمنيدس عرض ممتد لتدمير المفترضات الذى يُعَدّ فى الـ جمهورية جوهر ذلك الديالكتيك الذى هو ممارسة لفعل العقل الذى فيه نجد حقيقتنا الخاصة فى فاعلية العقل الخلاق. وهكذا نكون محقّين فى أن نسمّى الحقيقة النهائية الـ فعل ـ ثم نتوب توّا عن تجديفنا، لأنه لا اسم يمكن أن يسمِّى الحقيقة النهائية. عقلنا الخلاق وحده حقيقى فى منتهى الأمر. وفى العقل الخلاق وحده تكون كل كينونةٍ وكل صيرورةٍ معقولةً. وكينبوع وأساس لكل كينونة وصيرورة، نسمى الحقيقة النهائية أيضا الـ أزل الـ خلاق.

* * *

يبحث الفيلسوف عن الحقيقة. يقول لنا هيراقليطس إن العالم وكل الأشياء في العالم هي ظلال زائلة واهية. ويقول لنا پارمنيدس إن الحقيقي والمعقول هما شيء واحد. ويمضي فيخبرنا بأنه لكي يكون الحقيقي معقولا، لابد أن يكون واحدا، لامتجزئا، لامتغيرا، راسخا. وفي الـ پارمنيدس يمتحن أفلاطون ذلك الكائن الواحد البارمنيدي ويجد أنه في ذاته وبذاته ينجب التعددية والتحول والتناقض. وفي محاورة "صوفيست"، يجد أن الـ واحد البارمنيدي إذا أُخذ على ما هو دون تحفّظ يكون بلا حياة وبلا عقل. كان سقراط يرى أن الفكر هو حياتنا وهو كينونتنا الحقّة، وفي ذات الوقت، أن كل فكر محدّد غارق في التناقض والزيف. العقل الفاعل وحده – فقط تفعيل العقل الذي يكتشف ما في فكره الخاص من تناقض ويهدم كل صياغات ذلك الفكر - فقط هذا العقل الفعّال هو حياة حقة وكينونة حقة. وهكذا يقود بحث أفلاطون عن الحقيقة في الـ جمهورية إلى فاعلية العقل كأسمى حقيقة، وفاعلية العقل تلك تجد حقيقتها الذاتية في التدمير المتواصل لتجسيداتها المتتالية في فكر محدد.

وهكذا، مرة أخرى، ما هي الـ حقيقة؟ دعونا نحاول مقاربة أخرى. لأنه إن كان صحيحا أننا لن نستطيع أبدا أن نمتلك الـ حقيقة في شكل صدق تام، لكن نستطيع فقط أن نلمح الحقيقة في مجريات البحث عن الحقيقي، فالسعي الفلسفي لابد أن يكون إعادة اكتشاف بلا انتهاء لحقيقتنا ذاتها في صروح الميثولوچيا المتهاوية أبدا. لكن ميثولوچيتنا الفلسفية سوف تكون ميثولوچيا مفاهيم بدلا من الميثولوچيا التصويرية في صورتها التقليدية. دعونا نحاول.

إننا نبحث عن الحقيقة، ونحن نجد الحقيقة لا في الظواهر، ولا في الموجودات المتغيرة، ولكن فيما هو وراء الظواهر، في ما يعير الظواهر نصيبها من الحقيقة. ولكن البحث عن الحقيقة في انفصال عن الظاهري لا يقودنا إلا إلى الوهم وخداع النفس كما في حالات التجارب التصوّفية المضللة. لكي نصل إلى ما وراء الظواهر لابد أن نمر عبر الظواهر. وفقط حين نتغلب على لاحقيقية الظواهر من خلال الكشف الديالكتيكي لعوزها الأنطولوجي يمكن أن نصل إلى الحقيقة. وهكذا، في أمثولة الكهف التي قدمها

أفلاطون، فإن السجين الذى خرج من الكهف لابد أن يمر عبر الظلال وانعكاسات الأشكال حتى يصل إلى أن يبصر الشمس. والتجربة التصوّفية التى تنتهى إليها الممارسة الفلسفية ليست إنكارا لواقعية العالم الموضوعى، ولا إغفالا لها، لكنها كشف لاعتماد العالم الموضوعى على الحقيقة المتسامية.

هذه الرؤى كونية. إننا نكتشفها فى الأساطير، وفى طقوس العبادات الخفيّة، وفى التدفقات التصوّفية، وفى النُظم الميتافيزيقية، لأن هذه كلها تنتسب للحقيقة الوحيدة التى نعرفها، الحقيقة التى نجدها فى أنفسنا، الحقيقة التى نجد فيها أنفسنا، لأننا لا كينونة لنا إلا فى تلك الحقيقة، ونحن نعرف هذه الحقيقة فقط فى كينونتنا الخاصّة.

ومن ثم، فكل فلسفة حقة هى بلاغ نبوءة يعلن عن رؤية تنفذ إلى الحقيقة الروحية للفيلسوف ذاته. وحيث أن تلك الحقيقة الروحية تتجاوز كل خصوصية وكل محدودية، فهى تتأبّى تماما على البَوح ولا يمكن الإحاطة بها فى أى صياغة محددة. ومن ثمَّ فإن كل تعبير فلسفى حق يلزمه حتما أن يغلّف بالمجاز، وبالأمثولة، وبالأسطورة. وإذا لم يكن للتعبير الأسطورى عن الرؤية الفلسفية أن يتحول إلى خرافة – آفة كل دين مؤسّسى - فلابد أن يكون موضع تساؤل باستمرار، وأن يتم إظهار عدم كفايته. أولئك اللاهوتيون الذين يقولون أن طبيعة الله لا يمكن الإفصاح عنها إلا فى عبارات سلبية أدركوا بصيصا من هذا. لكن موقفهم يخضع لخلل مزدوج. فإذا التزموا بمبدئهم بصرامة وثبات، فإن إلههم لن يكون إلا مجهولا خاويا لا سبيل لمعرفته. ولكن، فى التطبيق العملى، فإنهم بعد استبعادهم لأى مفهوم عقلانى معقول عن الله، يتقبّلون كل لون من المعتقدات التى لاعقلانية ولا عقل ولا فهم فيها - معتقدات لم تخضع لمساءلة ولا تقبل الخضوع لمساءلة، إنكار لحق التفكير وحق الفهم، إهدار للكرامة التى هى حق للإنسان من حيث هو إنسان.

* * *

لا جدوى من المجادلة لإثبات حقيقة الـ واحد أو الـ خير أو الـ عقل الـ فاعل. فإذا خصّصنا مصطلح "الوجود" للموضوعى، المعطَى، المتناهى، المحدّد، وبتعبير آخر، إذا وضعنا الوجود فى مقابل الحقيقة، كما أفعل أنا، يصبح من السخف أن نتكلم عن الـ واحد، والـ خير، والـ عقل الـ فاعل باعتبارها موجودات. هذا، من ناحية، أمر يتعلق بالاصطلاح، وتخصيص المصطلحات هى عملية اعتباطية ويمكن قلبها إلى العكس. ولكن فيما يتجاوز مسألة الاصطلاح هناك الإصرار على معنى الحقيقة باعتبارها متميّزة عن كل ظاهرة متناهية، محدّدة، متغيرة فى العالم المحيط بنا. وهذا هو التمييز الذى أبرزه أفلاطون فى الفقرة الخصبة عن حرب الآلهة والعمالقة فى محاورة صوفيست.

أقول إنه لا معنى لأن نجادل لإثبات حقيقة الـ واحد، أوالـ خير أو الـ عقل الـ فاعل، لأن هذه كلها ليست موجودات بل مفاهيم تضفى معنى على الموجودات الموضوعية. هذه المفاهيم هى مبادئ للمعقولية، وبالتالى للحقيقة. فإننى، فى اتفاق مع بارمنيدس وأفلاطون، أعادل الحقيقة بالمعقولية، وإن يكن مع بعض الاختلاف فى المصطلح. ما أسمّيه أبعاد الـ حقيقة هى مفاهيم بدونها تبقى كل معطيات التجربة الإنسانية لامفهومة. إن أبعاد الـ حقيقة ـ المبادئ الأولى لفلسفتنا ـ معقولة وتضفى المعقولية على الموجودات. هذا هو ما أعنى حين أقول إنها حقائق وإنها الحقيقة الوحيدة التى نعرفها. الحقيقة هى المعقولية المتحققة فى عقلنا، منبعها وأساسها العقل الفعال، فاعلية العقل فينا، وتلك هى حقيقتنا وكلّ كرامتنا وكلّ قيمتنا.

إننا، كفلاسفة، لا نتحدث عن أى حقيقة خارج ذاتنا، لكننا نعلم أيضا أننا، كأفراد متناهين، لسنا مصدر الحقيقة، ولكننا نحن أنفسنا موجودون فى الـ حقيقة. ومن هنا نقول إنه لكى تكون الكينونة معقولة، ولكى يكون العالم معقولا فى منتهى الأمر، علينا أن نرى الحقيقة النهائية كـ عقل خلاق. هذه هى الرؤية التى نجدها عند أفلاطون وعند أفلوطين ـ ليست نظرية، وليست منظومة ميتافيزيقية، ولكن القول بأن عقلنا الخلاق، توكيدنا المحب لكل كينونة إيجابية، هو حقيقتنا وقيمتنا الحقّة، وهو كل ما نعرفه من

الـ حقيقة. كل ما عدا ذلك هو أسطورة وأمثولة، إذا نسيتْ أنها لا شيء إلا أسطورة وأمثولة، فإنها تتحول إلى خرافة مهلكة.

* * *

نحن البشر فى الأساس كائنات عاقلة. هذا هو امتيازنا، ومجدنا، ومأساتنا. ففى التفكير نعيش حياتنا الإنسانية المتميزة، ونمارس قدراتنا الإنسانية الخاصّة. ربما تكون لدينا قدرات أرفع وأقيَم: القدرة على الحب، وعلى الاستمتاع بالجمال، أو مجرد التمتع بالشعور بأننا أحياء وفى عافية. لكننى أحدس أن مخلوقات أخرى لها هذه القدرات. ونوع التفكير الذى يمكن أن ندعوه تفكيرَ حلّ المشكلات لا يختص به الإنسان وحده. ولكن يبدو أن بناء منظومات من المفاهيم المجردة هو أمر ينفرد به الجنس الإنسانى. حين ننشئ منظومات من المفاهيم المجردة نحيا - بأدقّ معنى للكلمة - فى أكوان معقولة من صنعنا نحن.

العالم المعقول الذى نخلقه قد يكون نموذجا لحركة النجوم والكواكب. وقد نتخيل حينئذ أننا لدينا معرفة موضوعية. كل ما نستطيع أن نقوله عن حقّ هو أن الظواهر تتكرّم بالتوافُق مع نموذجنا، أو بلغة مصطلحاتنا المدرسية، أن نموذجنا يحفظ المظاهر. وأنا، ربما عن جبن منى، سوف أحجم عن الإسهاب فى هذه النقطة فى السياق الحالى لأن طبيعة المعرفة العلمية ليست موضع اهتمامى فى الوقت الراهن.

فى مجالات أخرى، ببناء منظومات من المفاهيم المجردة، نعيش فى عوالم روحية واجتماعية وثقافية من صنعنا نحن، ونعيش خبرات مشاعر الحب والصداقة والولاء والكبرياء والخجل والحسد والكراهية - مجموعة المشاعر والأحاسيس الطيبة والسيئة بأكملها - كلها على أساس قيم ومفاهيم من صنعنا نحن. ومن هنا يأتى الخطر. فبينما القيم والمفاهيم التى تولّد مشاعر وأحاسيس طيبة توسع حياتنا وتثريها، فإن القيم والمفاهيم التى تولّد مشاعر وأحاسيس سيئة تقلّص وتفسد قدراتنا الإبداعية والحيوية.

بالإضافة إلى ذلك فقد نبنى، ونحن نبنى فعلا، منظومات من المفاهيم المجردة التى تعطينا عوالم متخيلة عامرة بالأرواح والقوى والآلهة - أو إله واحد - نضلل أنفسنا بأن

نحسبها موجودة فى انفصال عن فكرنا. حتى عندما نصوّر تلك الأرواح والقوى على أنها خيِّرة، فإنها لا يمكن أن تمثل ثقافة نعيش فيها ككائنات حرة وعاقلة، إلا عندما نعترف بأنها من صنعنا. حتى عندما تكون آلهتنا خيِّرة، فحين نراها باعتبار أنها هى التى خلقتنا وليست من صنعنا، فإن عقلنا يصبح معوقا. عندما تكون آلهتنا قاسية، وشريرة، وغير عقلانية، نعيش على الأرض فى الجحيم الذى جعلناهم يعدونه لنا فى عالم آخر، ونكره ونقتل إخوتنا من الكائنات الإنسانية طاعة للآلهة الأشرار الذين أوكلنا إليهم حكم عالمنا.

وهكذا، فإن تفكيرنا هو مجدنا وهو عدونا المنتقم: وهذا هو السبب فى أننا ينبغى أن نحيا ونحن نقوم ببناء عوالم مثالية بلا توقّف، فبدون هذه العوالم تكون إنسانيتنا ناقصة، وينبغى أن ندمر عوالمنا المثالية بلا توقّف، فعندما نتوقف عن إدراك أنها من إبداعنا، نكون بلا عقل مهما بلغنا من الذكاء.

* * *

كل كينونة إثبات. وكل إثبات فاعلية عقل. لا يمكن لكائن أن يكون أو أن يستمر فى انفصال عن العقل. هذا إعلان إيمان، أو، إن أحببتم، هو خيال. فلا يمكن إثباته ولا دحضه. ولكن بدونه تصبح كل كينونة لغزا يهزأ بعقلنا. وفيما أرى، فإننا فقط حين نرى العقل الفاعل أساسا ومنبعا لكل ما هو كائن تصبح المعقولية التى نجدها فى الأشياء ويصبح العقل الذى نجده فى أنفسنا مفهوما. هناك عقل فينا. وهذا العقل هو الحقيقة الوحيدة التى لا يمكننى إنكارها أو الهروب منها. لا يمكن أن أفهم كيف يمكن لهذه المعقولية وهذا العقل أن يأتيا من أشياء أجدها غير مفهومة فى ذاتها. ومن هنا، أرى هذا العقل باعتباره المنبع النهائى لكل الحقيقة. وأرى هذا العقل النهائى موجبا وخلاقا. كعقل موجب هو يعتزّ بكل كائن، ويقدِّر كل كائن، ويحب كل كائن. العقل الخلاق خيّر وهو مصدر كل الخير وكل الجمال. عندما نرى أنفسنا كائنين فى هذا العقل الأوّلى، عندما نرى أن كينونتنا الحقّة هى فى أن نكون فى هذا العقل، عندئذ نكون خيّرين؛

عندئذ لا نجد شيئا أكثر قيمة من توكيد كينونتنا كعقل. لو أننا كلنا رأينا كينونتنا الحقة، قيمتنا الحقة، كرامتنا الحقة، فى العقل ولا شىء آخر، لكانت لنا إنسانية تعيش فى انسجام كامل وحب متبادل. هذا حلم؛ لكن بدون هذا الحلم، هل تستحق الحياة أن تُعاش؟

* * *

فى ترميزى للأسطورة، وفى المتوازيات التى رسمتها بينها وبين المعانى التى يمكن أن نجدها فى أعمال الفلاسفة وفى منظوماتنا العقائدية، كان غرضى مزدوجا. أولا، أريد أن أوحى بأن الأساطير، والمعتقدات التقليدية، والنظريات الفلسفية، كلها أساليب للتعبير عن حقيقة نجدها فى أنفسنا ولكن لا نستطيع أن نستوعبها تماما. ثانيا، أريد أن أوحى بأن كل أساليب التعبير تلك عن الحقيقة التى هى فينا، هى على حدٍّ سواء أسطورية، وإن يكن بطرق مختلفة. أن نأخذ تلك التعبيرات المختلفة كمقولات صادقة تمثل أشياء واقعية خارجنا، هذه حماقة. أن نعتبر أنّ أحد أساليب التعبير هذه هو التمثيل الصحيح الوحيد للحقيقة، هذا جنون. ومن ناحية أخرى، أن نجارى ديموقريطس ولوسيبوس، أبيقورس ولوكريتيوس، فنحصر الفكر الإنسانى فى الأحداث التى تخضع للملاحظة، فذلك إفقار للثقافة الإنسانية. إننا بحاجة إلى الأسطورة، ولكن لابد أن نعترف بأنها أسطورة.

تذكروا أنه بينما يجوز لنا أن نولّد المعانى الفلسفية من الأسطورة بشكل خلاق، وأن نُعمل الفكر فيها، وبينما من المعقول أن نفترض أن الأسطورة كانت أصلا مستلهمة من بصيص واهن من رؤىً ميتافيزيقية، فإنه من الوهم والمنافى للعقلانية أن نجد رمزية محددة فى تفاصيل القصة وأن نصر على أن مبدعى الحدوتة كانوا يقصدون هذا الترميز عن عمد. بقدرٍ كافٍ من البراعة، يمكننا أن نستمد أى معانٍ نريدها من أى نص محدد أو قصة معينة. ولا غبار على أن نفعل ذلك إن كنا نعلم ما نفعل. أما أن نقول إن المعانى التى نستمدها من القصة كانت هى الموجودة فى عقل

مؤلف القصة، هذا معناه أن نبدأ السير فى طريق زلقة تنتهى بالانسلاخ عن العقل. إن لدينا قصة جميلة، ومن حقنا أن نتخذها كمادة نصنع منها أفكارنا الخاصة بنا. وليس من حقنا أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك.

* * *

يقوم التفكير بأداء فعله عن طريق وضع تمييزات، عن طريق تفكيك الكلّ إلى قطع منفصلة. فى عملية الفهم، ينتهك العقل بالضرورة كليّة الحقيقى، وتكامله. وبفعله هذا يخلق كيانات خيالية. يقوم التفكير بأداء كل ما يلزم له من عمل داعم للحياة وحافظ لها من خلال هذه الكيانات الخيالية، على كل المستويات، من أكثر المستويات دنيوية، والتى فيها كل الأشياء العادية التى تملأ عالمنا لا تكون ما هى عليه بالنسبة لنا إلا بفضل الفكر فقط، وحتى أكثر عمليات التفكير الرياضى والديالكتيكى تجريدا وصرامة والتى يتعامل فيها العقل مع الصور الخالصة (بالمفهوم الأفلاطونى). فى الـ پارمنيدس يفكّك أفلاطون الـ واحد، ويفكّك الكينونة ليستخرج التضمينات المتناقضة التى تنتج عن اتخاذ الـ واحد أو اتخاذ الـ كينونة كمفهوم كافٍ بذاته.

بوضع التمييزات، بجعل الـ كلّ شظايا، نحل المشكلات، ونصوغ النظريات، ونفكر بشكل مترابط منطقيا. ولكننا لا نحظى بالرؤية العقلية والفهم إلا بالرجوع إلى الـ كلّ. هذا هو سر الحوار السقراطى. فى التمحيص الديالكتيكى لفكرة ما، يُجرى سقراط تحليلات مختلفة للفكرة، كاشفا أنه لا أى تحليل منها، ولا كل التحليلات إن أُخِذت مجتمعة، فيها الكفاية لجوهر الفكرة. وتدلنا الحيرة التى ينتهى بها التمحيص دائما على أن الفكرة فى ذاتها هى التى لها معنى وهى التى تضفى المعنى على كل العناصر التى نستخدمها فى تحليلاتنا المتعددة.

وفى الطريق، فى مسيرة التمحيص الديالكتيكى، نكتسب الوضوح وترتيب الفكر، لكن الحيرة الخلاقة، التى تعود بنا إلى الوضوح الذاتى للفكرة، تلك هى الهدية النفيسة للحوار السقراطى. وكما يقول سقراط: إنه بالجمال تكون كل الأشياء الجميلة جميلة.

عندما قام أرسطو بتصوير الحوار السقراطى على أنه بحث عن التعريفات، طمس المغزى الصحيح للمطلب السقراطى، وأنشأ فهما خاطئا يتسبب فى الكثير من الضرر، حتى يومنا هذا. ومن سوء الحظ أن قوة المرجعية التى يتمتع بها أرسطو العظيم تجعل من الصعب بالنسبة للكثيرين أن يخلصوا أنفسهم من هذا الفهم الخاطئ.

دعونى ألخص حصيلة مسعاى الفلسفى فى الكلمات التالية: إننى بحثت عن الصدق، ووجدت يقينا واحدا. هناك حقيقة، وهناك قيمة فى داخلى. ولن يكون لحياتى معنى وقيمة إلا عندما أحافظ على تلك الحقيقة وتلك القيمة فى داخلى. إننى كذلك مقتنعة بأن كل بحث عن الحقيقة والقيمة خارج الروح الإنسانية هو بحث عقيم: كل حقيقة وكل قيمة يُفترض وجودها خارج الروح الإنسانية هى وهم. بهذا المعنى أجد أن الحياة الفلسفية هى أخصّ وأسمى حياة للكائن الإنسانى _ الحياة الفلسفية، ممارسة فعل العقل، من حيث هى توكيد متواصل للعقل الخلاق للكائن الإنسانى. إننى بحثت عن الصدق، ووجدت يقينا واحدا: إن العقل الخلاق فينا هو الموضع، وهو المنبع، وهو الأساس للحقيقة الوحيدة والقيمة الوحيدة التى أعرفها، ولو أن هذا اليقين الواحد غير قابل، مطلقا، للبَوح به.

* * *

الأزل لا يعنى امتناع التغيير. لو أنه كان يعنى ذلك، لكان الأزل لحظة ساكنة دائمة من الخواء - هذه خلطة من الكلمات تفتقد لأى معنى، أعرف هذا، لأنها تريد التعبير عن استحالة. الأزل هو البعد المتسامى للحقيقة الذى يعير الزائل والعابر ما له من كينونة زائلة عابرة. الأزل يجد ديمومته فى الزائل وهو ديمومة الزائل. مرة أخرى، كل مقولة من المقولات التى قدمتها يمكن أن تُدحض تماما مثلما ظهر أن كل مقولة فى محاورة پارمنيدس الأفلاطونية يمكن أن تُدحض، ولنفس السبب، السبب الذى أراد أفلاطون لنا أن نلمحه من خلال الديالكتيك كلّى التدمير فى المحاورة - وهو أن كل صياغة محددة للفكر، كل ظهور محدد للكينونة، لابد أن يزول.

دعونى أعود لتوضيح مفهوم الأزل عندى. قلت: الأزل يجد ديمومته فى الزائل وهو

ديمومة الزائل. وبالنسبة لى هذا يساوى أن نقول إن الأزل هو حقيقة خلاقة. إن الشاعر الغنائى، رجلا كان أو امرأة، لا يجلس إلى مكتبه قائلا: سوف أؤلّف أغنية. ولا هو يعمل على مادة دخيلة أو غريبة لتنفيذ خطة سبق تصوّرها. إن الشاعر يكون فى حالة شعورية معيّنة، يحيا فى لحظة محددة، يعيش أسلوب حياة معيّن، لحظة معيّنة من لحظات الحياة. هذا الشخص، أسلوب الحياة هذا، تلك اللحظة من الحياة، ذلك الكل يتدفق إبداعيا فى أغنية. العاطفة، المشاعر، الصور الجارية، لها كينونتها المتلاشية فى الحقيقة المتسامية للشخص، والشخص له كينونته بما لها من ديمومة فى تدفق المشاعر والتصورات الجارية. إن شخصية الشخص هى الفعل الإبداعى لذلك الشخص. والشاعر ليس خالقا، ولكنه فعل خلق، الشخص ليس عاملَ فعلٍ لكنه هو الفعل. والحقيقة النهائية ليست خالقا أزليا، بل أزل خلاق.

إن حلم الخلود الشخصى، فى رأيى، هو حلم فارغ. فى النشاط الروحى، فى الإبداع الفنى، فى الفهم الفلسفى، نستطيع أن نشارك لحظيّا فى الأزل. من السهل تحديد مصادر الاعتقاد الشائع فى البقاء الشخصى والرغبة واسعة الانتشار، ولو أنها ليست على الإطلاق شاملة للجميع، فى البقاء الشخصى. الأحلام، والتعلّق العاطفى بالراحلين الأعزاء مصدران من هذه المصادر.

ويقوم الأمل الأقلّ سذاجة فى البقاء الشخصى على حسّ مرهف بأفضليّة تجاربنا وأنشطتنا الروحية على التجارب والأنشطة الأكثر اتصالا بحياتنا الجسدية. هذا، على سبيل المثال، هو ما نجده فى الحُجج التى أسندها أفلاطون إلى سقراط فى محاورة فايدون، خاصة فى الحُجة التى تستند إلى مماثلة الروح لما هو إلهى، والتى هى فى حد ذاتها جوهرة ثمينة من الحدس الفلسفى.

لكن فى رأيى أن الفهم الأعمق لأفضلية الحياة الروحية نجده فى منظور أننا فى النشاط الروحى والإبداعى نحيا فى الأزل بينما نعيش فى الزمان الآنى؛ إننا ننعم بأزليتنا فقط من خلال وداخل حياتنا الآنية، حين نسمو فى أفعال حب لحظية، فى لحظات شاردة من الإحساس بالجمال، نتجاوز الآنى والعابر ونشارك فى أزلية الحقيقى.

إننى شخصيا ليست لدى رغبة ولا اشتياق لاستمرارية ممتدّة لهذه التركيبة

الخاصّة من الأفكار والذكريات التى هى أنا الآن وهنا. يكفى بالنسبة لى أن أحيا من لحظة إلى لحظة، وفى اللحظة الأخيرة، أن أندمج دون تميّز فى الكل الذى منه أتيت.

* * *

تمثل أسطورة إيزيس وأوزيريس جوهر المأساة والمجد لكل وجود متناهٍ. الوجود المتناهى يتحتّم بالضرورة أن يُدمّر ليُبعث مرة أخرى فى شكل جديد. هذا هو الدرس الذى نقرؤه فى البذرة التى لابد أن تموت لتبعث مرة أخرى فى حياة جديدة. ولابد أن البشر أدركوا هذا الدرس فى كل مكان فى وقت مبكر جدا من تاريخهم. إننا نجد هذا الدرس فى كل الثقافات ممثلا فى أساطير مختلفة. إذن، فقصّة القيامة المسيحية تنتمى إلى تراث موقّر. إنها صيغة من موت أوزيريس وقيامته. هذا هو ما أسميه مبدأ الـ زوال.

إن مبدأ الـ زوال يعلن المأساة الجوهرية لكل وجود. كل ما يصير فيكون لابد أن يتلاشى. الموت هو توأم الحياة. إننى تحدثت عن نفتيس باعتبارها تمثل هذه المأساة الأساسية للوجود، لكننا يمكن أيضا أن نأخذ أخاها وزوجها ست باعتباره ممثلا لمبدأ الزوال. ست هو مبدأ العدم الذى بدونه يستحيل الوجود. العدم هو شرط الكينونة المتناهية المحدّدة التى هى الوجود. مبدأ العدم كشرط للوجود يستتبع زوال كل وجود واقعى: إنه مأساوى ولكنه ليس شرا.

مرة أخرى، الهدم الديالكتيكى الأفلاطونى لكل الفرضيات، الذى هو ضرورى للولوج إلى حقيقة لا يمكن أسرها فى أى صياغة فكرية محددة - هذا الهدم الديالكتيكى لكل الفرضيات ليس على غير صلة بمبدأ الزوال الذى يعلن أن كل وجود محدد لابد أن يفنى لإتمام التمثّل المتواصل فى واقعٍ لحقيقة لا يمكن أبدا أن تثبت فى أى واقع محدد. الواقعى يجب أن يكون متلاشيا ليشارك فى الحقيقة؛ الحقيقى يجب أن يسكن فى كينونة متناهية يحفّها العدم لكى تكون له واقعية: الفهم يجب أن يدمّر فرضياته ليصل إلى رؤية الحقيقة؛ العقل يجب أن يكوِّن صياغات متناقضة ليكتسب المعقولية. من جديد

نجد هنا توازيا مع تقديم أفلاطون فى الـ فيليبوس للـ لامتناهى والـ محَدّد كمبدئين نهائيين.

ومرة أخرى نجد هنا تناظرا مع التمثيل المسيحى للـ لوجوس الأزلى متجسّدا فى جسد فانٍ. وأظن أن المؤلف المسيحى الذى قدم هذا التمثيل كان يحاول التعبير عن رؤية ميتافيزيقية كهذه. من المؤسف أن ذلك التعبير الشعرى عمّا كان يمكن أن يُرى كرؤية ميتافيزيقية عميقة قد أُهدِر على يد عقليات ضحلة بحيث تحوّل إلى دوجما ميتة والآن يتخاصمون ويتقاتلون حول ما إذا كان هذا التجسد واحدا أو اثنين، أو اثنين هما واحد، أو واحدا هو اثنان، وما إذا كان الاثنان هما طبيعتان أم شخصان أو اثنان من أى شىء آخر، دون أن يعلموا أن كل تلك الصياغات يمكن أن تكون مجازات ملهِمة عندما تُقبل كمجازات، ولكنها تتحول إلى بهتان يورث بلادة العقل عندما نغفل عن البطلان الكامن فى المجاز، أو، إذا عدنا إلى أفلاطون، عندما لا يتم هدم الفرضيات ديالكتيكيا، بل يتم تثبيتها كخرافات مهلكة.

إن العالم لا يصبح له معنى إلا فى الأسطورة. كل ثقافة وكل تماسك اجتماعى يقوم على أساس أسطورى. قد تحسب حضارة ما نفسها متحررة من كل الخرافات، والأحلام اللادنيوية، والتصورات التوهّمية، وتحسب أنها تقوم بثبات على أفكار علمية موضوعية، وقيم "واقعية"، ومبادئ نفعية واعية. أبدا لا تكون أمة، أو دولة، أو إمبراطورية عاتية، واقعة فى براثن الأسطورة أكثر مما تكون فى تلك الحالة. إذ تعتقد أن مبادئها الأولية وقيمها محصنة بما لا يدع مجالا للشك، فإنها ـ حتى بينما هى تتخيل نفسها فى قمة حيويتها وسلطانها ـ تكون بالفعل جسدا ميتا وفى طريقه للتحلل. النهر الذى يجرى دوما ولا يتوقّف أبدا هو وحده يبقى نقيّا عفيّا. الثقافة التى تعرف أن أسسها قابلة للهدم والإحلال هى وحدها تبقى حية.

ولكن، حذار من الإغواء القاتل للنداء الساحر للأسطورة. بدون الاستماع إلى غناء الأسطورة تصبح حياتنا فقيرة وضحلة، لكن إن لم نحرر أنفسنا من أسر الأسطورة نركد ونتعفن. إن حقيقة العقل الخلاق التى تتأبّى على البوح والتى هى الحياة الحقة لا

يمكن التعبير عنها تعبيرا محددا إلا فى أسطورة. لكن إذا أخطأنا فهم الأسطورة واعتبرناها واقعا، فإن الأسطورة تتحول إلى صَدفة ميتة وتنفصل عن النبع الحى الذى انبثقت منه الأسطورة فى المقام الأول. عندئذ تتحول الأسطورة إلى خرافة، ولا يكون بعد ذلك لا عقل ولا رؤية.

* * *

لفترة طويلة من الزمن كنت أسعى إلى نظرية، إلى صيغة، "لتفسير" كل صيرورة. كثير من تلك "التفسيرات" قُدمت من قبل، من التكثيف والخلخلة عند أناكسيمنيس، إلى مبدَأىْ الحب والكراهية عند إمپيدوقليس، وحتى نظرية الفيض عند أفلوطين، ولا شك أن الكثير من هذه النظريات والصياغات سوف تستمر فى أن تُقترح. كل تلك النظريات هى فى الأساس مجازات تضفى تماسكا على عملية الصيرورة، وهذا يعنى ببساطة أنها تعطينا إحساسا بالراحة والرضا، إنها تعطينا إحساسا بالقناعة الجمالية فى مشاهدة نشوء حالة كينونة من أخرى. ولكن هل تُفسّر أى من تلك النظريات أو كل تلك النظريات معا الصيرورة؟ إن سرّ الصيرورة يظل سرّا. وفى النهاية وصلت إلى نتيجة أننا ينبغى أن نعترف بأن سرّ الصيرورة، مثل سرّ الكينونة، يستعصى على التفسير. ينبغى أن نقبله كملمح نهائى للحقيقة النهائية. وهذا الملمح النهائى أسميه مبدأ الـ إبداع. عندما أقول أن ذلك يعير معقولية للصيرورة، فإننى لا أعنى أنه يفسّر الصيرورة. بل أعنى أننا فى مبدأ الـ إبداع نستقر عند حقيقة الإبداع كـ سرّ نهائى، أو إذا فضلتم التعبير بهذه الصورة، نستقرّ عند سرّ الإبداع كحقيقة نهائية ذاتية الوضوح.

* * *

هل هناك عقل فى الكون، فى العالم الذى نراه حولنا؟ هذا سؤال لا يندفع إلى إجابته بثقة إلا أحمق. حدثنا أفلاطون فى محاورة "صوفيست" عن المعركة المتواصلة بين الآلهة والعمالقة. يريد العمالقة أن يعتبروا حتى العقل الموجود فينا مجرد شىء شبحى لا يستحق تكريمه تحت عنوان الحقيقة. الآلهة يرون العقل جذر ومصدر وأساس الحقيقة. والآن، أنا لست إلهة بالطبع، لكنكم جميعا تعرفون أننى أقف إلى جانب الآلهة الفلسفية. وفى رأيى أن فكرة وجود شىء، أى شىء، منفصلا عن العقل، هو شىء لا يُعقل. ولا أستطيع أن أرى كيف يمكن لأى شىء غير متأصّل فى العقل أن يكون.

ولكن، بأى معنى يوجد عقل فى الأشياء التى نسميها ماديّة؟ بأى معنى هناك عقل فى صخرة، أو فى كتلة خشبية، أو فى شىء مصنوع؟ هذه أسئلة معقدة يمكن أن نخمن لها إجابات إلى ما لا نهاية. هنا أود فقط أن أوضّح أننى عندما أقول أننى لا أستطيع أن أرى كيف يمكن لأى شىء أن يكون فى انفصال عن العقل، فإننى لا أشير إلى العقل كما نعرفه عادة فى أنفسنا. فالعقل الذى نعرفه عادة فى أنفسنا مشروط بالحدود والظروف الخاصة بالحياة الإنسانية. ومعظم مظاهر العقل فى حياتنا اليومية وخبرتنا اليومية لا تمثل ما ينبغى أن نرى أنه أثمن الأشياء أو أكثرها حقيقة فينا. المهارة والدهاء وحتى القدرة على الابتكار الجديرة بالثناء ليست هى أفضل وأسعد ما فينا.

لكن العقل، أو، كما أفضل أن أقول، فعل العقل، هو بالنسبة لى جانب لا يمكن فصله عن الحياة، عن الإبداع، عن ما هو حقيقى. وهكذا، بينما أقول أننى، نظريا، لا أستطيع رؤية كيف يمكن أن تكون هناك صخرة غير قائمة فى العقل، إلا أننى أعترف بأننى ليس لدى فكرة كيف تكون صلة العقل بالصخرة. لكنى أستطيع أن أقول بثقة أكبر أننى أشعر أن هناك عقلا فى الزهرة أو النحلة بنفس معنى وجود العقل فى أفضل لحظات السكينة والسعادة فى حياتنا. ولابد أن أوضح أننى عندما أتحدث عن العقل فى النحلة فإننى لا أعنى القدرات المدهشة للنحلة التى أمامها نجد أن أفضل مهاراتنا تبعث على الخجل، لكنى أعنى العقل المتأصل فى مجرّد حيويتها.

أعرف أن أفكارى حول هذا الموضوع مبهمة وسديمية وبحاجة للتطوير والتوضيح، لكنها - وأقول هذا دون تردّد - ليست أكثر إبهاما من أفكارى حول أى موضوع آخر، الفرق الوحيد هو أننى، فى الموضوعات الأخرى، أستخدم مصطلحات ومفاهيم تبدو لكم ذات معنى لأن وقعها مألوف عندكم. ولكن فى الحقيقة، إذا لم يكن لنا أن نخدع أنفسنا، لابد أن نعترف أن كل تفكيرنا النظرى هو بالضرورة دائما مبهم وسديمى، يحتاج دواما للفحص والتوضيح وإعادة الصياغة. وعندما ننسى هذا، نقع فى الوهم الكبير والمهلك إذ نظن أنفسنا نمتلك الصدق التام المحدد. هذا، فى منتهى الأمر، هو جوهر رسالة الحوار السقراطى ومفهوم أفلاطون عن الديالكتيك.

لقد قلت هذا من قبل، وأشعر أنه يحتمل التكرار. عندما يتقدّم أى منكم إلى بسؤال، أتمنى ألا يقع السائل أبدا تحت وهم أن يتوقع منى أن أقدم إجابة صادقة. السؤال الذى يمكن أن تُقدّم عنه إجابة صادقة غريب عن الفلسفة. السؤال الفلسفى هو دعوة، إغواء، للتأمل، ولتوضيح أفكارنا الذاتية. إذا كنت تبغى إجابات صادقة، فلتذهب إلى الحرفيين، أو اذهب إلى اللاهوتيين! فكل إجاباتهم صادقة صدقا مطلقا، حتى عندما تكون متناقضة تناقضا مطلقا! عندما تسألوننى سؤالا، فإننى، أيّا كان ما أقوله، لا أعطيكم إجابة وإنما أغريكم بالنظر داخل عقلكم أنتم - أو على الأقل هذا ما أتمناه.

* * *

سأل أبولودوروس: "إنك تصرين على أن الرؤية الفلسفية لا يمكن التعبير عنها إلا بالأسطورة. عندما نقول هذا، ألا نتجاهل أهمية الصدق فى الحياة البشرية؟"

قالت هيپاتيا: "سؤال جيد يا أبولودوروس. يتهمنا أصدقاؤنا الأرسطيين بأننا نقلل من قيمة الصدق. ولكن على العكس تماما. فالفيلسوف لا يكره شيئا كراهيته للزيف ولا يحتقر شيئا احتقاره للخديعة، وخاصة خديعة الذات. لكن أصدقاءنا الأرسطيين يطبقون كلمة الصدق بتوسّع أكثر من اللازم ويتساهل أكثر من اللازم. الشاهد الذى يعطى شهادة فى ساحة القضاء، والفلاح الذى يأخذ قياسات لوضع الحدود بين حقله

وحقل جاره، والطبيب الذى يسعى لتحديد سبب مرض مريض، والمؤرخ الذى يدقق فى السجلات ليصوّر الأحداث فى وقت ومكان معينين، والفلكى الذى يحسب بُعد أو مدار كوكب ما - هؤلاء الأشخاص المختلفون يتعاملون مع أنواع مختلفة من الصدق ورغم ذلك فإنهم جميعا مهتمين بالصدق وبالنسبة لهم جميعا الصدق قيمة عليا. فالشاهد الذى لا يلتزم الصدق ليس بشاهد، والعالم الذى لا يلتزم الصدق ليس عالما، والطبيب الذى لا يلتزم الصدق ليس طبيبا. وحتى هنا نحن مؤيدون مخلصون للصدق مثلنا فى ذلك مثل أى أرسطى. لكن الرؤية الميتافيزيقية تتحول إلى زيف متى ارتدت رداء الصدق. الأنواع المختلفة من الصدق حيوية فى مجالات مختلفة من البحث. أما التفكير الميتافيزيقى فليس بحثا فى أشياء موضوعية؛ إنه استكشاف لحقيقتنا نحن - ولكن هذا التعبير أيضا عرضة لإساءة التفسير، ولهذا دعونا نقول أن التفكير الميتافيزيقى هو جولة للمشاهدة داخل حقيقتنا نحن".

* * *

مقتطفات من محاضرات هيباتيا حول أفلوطين

أعاد أفلوطين كساء الرؤى الأفلاطونية فى أمثولات ميتافيزيقية جريئة. حيوية تجربته التصوّفية أملت الهيئة الفخيمة لأمثولاته الميتافيزيقية. لم يتوقف أفلوطين وسط تدفقاته التصوّفية ليقول، مثلما كان يفعل أفلاطون: "انتبهوا، هذه مجرد أسطورة". لكننا يمكن أن نفعل هذا بالنيابة عنه، ونكون ممتنّين لأن أساطيره الجريئة تعطينا رؤىً مفعمة بالحيويّة للحقيقة، تمنحنا حقا تجربة روحية نابضة بالحياة.

* * *

أفلوطين يتّخذ من الـ جمال نقطة انطلاق لمنظومته الفكرية. وهذا له ما يبرره. لأنه فى الـ الجمال يرى العقلُ الفاعل الحى حقيقته فى مباشرة تامة. هكذا فإن أفلاطون فى الـ سيمپوزيوم يجعل الصعود الروحى ينتهى بمشاهدة الـ جمال. فى الـ جمهورية،

الحقيقة النهائية هى صورة الـ خير. وإذا نظرنا لصورة الـ خير باعتبارها الغاية العليا لكل التطلعات، فلن تكون لدينا مشكلة فى معادلتها بالـ جمال.

إذن إن قلنا إن الله هو الخير، أو إن الله هو الجمال، أو إن الله هو العقل الفاعل، فإننا فى كل هذه المقولات نتكلّم عن حقّ وبنفس القدر نتكلّم كلاما منقوصا. هكذا فإن فكرة أن الجمال هو الصدق والصدق هو الجمال - فى أى صورة أو أى زمن يمكن إعلانها فيه - هى وافية التبرير. تبرير الصدق بالمنطق وتسلسل الحُجة يكون دائما غير مباشر وخارجيا.

التبرير التام للصدق هو المباشرة ذاتية الوضوح للصورة المعقولة. فى الصدق الفلسفى الأمر كذلك ببساطة. وفى الحقل التجريبى، الأمر كذلك فى النهاية، لكننا فى العادة لابد أن نُدخل فى الصورة العديد من المعارف الجزئية المركّبة لكى نصل إلى كلٍّ ذاتى الوضوح. وكل علم يهدف للوصول إلى مثل هذا الـ كُلّ ذاتى الوضوح. وفى حالة علوم الطبيعة، فإن هذا الهدف مثل أعلى قد لا يمكن تحقيقه بشكل كامل وتامّ أبدا. فتمثيلات العلم دائما جزئية ونسبية.

الفلسفة تختلف. فى التفكير الفلسفى ننسج أنساقا مثالية تضفى المعقولية على معطيات التجربة. إن الفلسفة، عندما لا تكون مضللة، لا تزعم اكتشاف أو تمثيل وقائع فعلية خارج العقل البشرى. ومن ثم فإن المقولات الفلسفية لا يمكن أن تكون كاذبة بنفس الطريقة التى يمكن أن تكون بها المقولات الخاصة بالواقع كاذبة. المقولات الفلسفية تعطينا رؤية. والرؤية لها قيمة بقدر تعبيرها - وطالما كانت تعبر - عن حقيقتنا الداخلية، الحقيقة الوحيدة التى نعرفها.

لكن كتعبير، فهى انعكاس للحقيقة فى وسيط آخر غير الحقيقة، سواء نظرنا للوسيط باعتباره تفكيرا مفهوميا أو لغة. لهذا فنحن نقول إن التعبير الفلسفى هو فى جوهره أسطورى. الطبيعة الأسطورية للتعبير الفلسفى ليست عيبا. إنها وسيلتنا للتواصل مع الحقيقة. لكنها لا تخدم ذلك الغرض إلا عندما لا تخطئ طبيعتها الحقيقية. وعندما تؤخذ مقولة فلسفية خطأ على أنها مقولة واقعية، وعندما يؤخذ التمثيل

الأسطورى لحقيقتنا الداخلية خطأ على أنه تمثيل فعلى لواقع موضوعى، وعندما يفترض التعبير الفلسفى فى نفسه الثبات والتمام، حينئذ يتحول إلى خرافة ولغو لفظى فارغ يعزلنا عن التواصل مع الحقيقة.

* * *

إن فلسفة أفلوطين بالغة القيمة فى سماتها العريضة، فى الرؤى التى تلهمنا إياها، وفى المشهد الكلّى الذى تقدمه. ذلك المشهد وتلك الرؤى لا تخدمها مجادلاته الاستطرادية من حين لآخر التى يدافع فيها عن نقاط معينة، أو تنظيراته الثانوية. تلك المجادلات والنظريات، مثل كل المجادلات وكل النظريات، يمكن دائما نقضها.

من حين لآخر كان أفلوطين يسعى للتدليل على وجهات نظر محددة، وأن يثبت صدق وجهات النظر تلك. أفلاطون كان يستكشف وجهات نظر مختلفة، تاركا الآراء المتعارضة تتصادم وتتضارب مع بعضها البعض، فيتولد عنها وميض يضىء الفهم، وفى نفس الوقت يكشف أنه لا فكر محددا يكون كُلاً ومكتفيا بذاته، وبهذا يقود العقل إلى رؤية أنه لا يمكن أن يجد التنوير إلا داخل ذاته، فى الممارسة المستمرة للفاعلية العقلية، التى لا يمكن أن تجد، ولا ينبغى أبدا أن تجد، راحة فى أى صياغة محددة أو نهائية أو ثابتة.

تشرّب أفلوطين الرؤية الأفلاطونية السامية للحقيقة، وأعطى تعبيرا لهذه الرؤية فى بانوراما فكرية مجيدة. وأشعر أنه من المؤسف أنه لم يستطع أن يخلّص نفسه تماما من تأثير الفهم الأرسطى الخاطئ المعتاد لدور البرهنة المنطقية فى الفلسفة.

كان أفلاطون يخلق أساطير، وكان يعرف أن أساطيره ليست إلا أساطير، وكان يعرف أن الحقيقة وراء الأسطورة. دعونى هنا مرة أخرى أوضح أننى عندما أتحدث عن الأسطورة عند أفلاطون، فإننى لا أقصد فى الأساس قصصه الأسطورية الشهيرة، إنما أعنى الأفكار والصياغات الأساسية التى عبر بها عن رؤيته للحقيقة. ربما أخذ أفلوطين الأساطير ـ أساطير أفلاطون أو أساطيره هو ـ بجدية أكثر إلى حد ما، مثلما

يفعل المتصوف ـ وكل فيلسوف حقيقى هو متصوف ـ إذ يعطى تعبيرا لفظيا لتجربته التصوّفية، ثم يعتقد أن هذا التعبير هو التعبير الممكن الوحيد أو التعبير الصادق الوحيد عن التجربة. بالنسبة لأولئك الذين لديهم المقدرة على المشاركة فى التجربة التصوّفية، فإن هذا يضعف التجربة ويجعلها ضيقة. وبالنسبة لمن لا يملكون المشاركة فى التجربة، فإنه أكثر ضررا، لأنه يضعهم تحت نير خرافة خاوية.

وهكذا فإن أفلوطين يعطينا أفضل التنوير عندما يتحدث كشاعر، عندما يتغنى بالفرحة الكامنة فى رؤيته؛ وهو يعلّمنا أقلّ ما يعلّمنا عندما يجادل كمنطقى، وعندما يضع التنظيرات.

* * *

يؤكد أفلوطين أن القبح والشر شىء واحد. لا شىء هو شرّ فى ذاته وبذاته. وفى رأيى أن القول بأن أى جزء من الكينونة، من حيث هو، شرّ، معناه أن نقبل الشر كمبدأ نهائى، وأن نعترف بالشر كبُعد أصيل فى الحقيقة النهائية. يكون الشىء شرّا عندما ـ وبقدر ما ـ يمزّق التكامل، أو يُعطب الكمال، أو يعوق كمالا ممكنا.

* * *

"عين لم تصبح مماثلة للشمس لن يتاح لها أبدا أن تبصر الشمس؛ ولا عين ليست جميلة سوف تبصر الـ جمال. ليكن إذن إلهيا وجميلا من يريد أن يتأمّل الإلهى والجميل." كما قلت مرارا: بأنْ تكون فينا الحقيقة نعرف الحقيقة. الحقيقة التى نعرفها هى حقيقتنا. لسنا نعرف أى حقيقة غيرها. ومع ذلك يحقّ لنا أن نقول إننا بهذا نعرف الـ حقيقة، لأن تلك الـ حقيقة هى منبتنا.

* * *

ربما كان ثالوث أفلوطين، الأقانيم الأوليّة: الـ واحد، الـ عقل، الـ روح، هو مصدر الثالوث المسيحى. ولكن ثالوث أفلوطين له جذور تضرب بعيدا فى تاريخ الفكر البشرى. لسبب ما، يبدو أن البشر قد رأوا الرقم ثلاثة يتمتع بقدسية خاصة. فى الفكر الهندى، هناك الترايمورتى (الثالوث) المكوّن من براهما وفيشنو وشيفا. عند هوميروس نجد زيوس وأثينا وأبوللو، يوجه إليهم الخطاب بشكل جمعى فى ابتهال مفرد. وهنا فى مصر هناك ثالوث آمون وموت وابنهما خُنسو. ومن ثم فلا عجب أنه رغم أن الإنجيل الرابع من الأسفار المسيحية المعتمدة يتحدث فقط عن الله والـ لوجوس، فإن مؤسسى العقيدة المسيحية استجابوا لإلحاح استكمال الثالوث برفع "الروح القدس" ـ التى لم تكن تحظى من قبل إلا بدور متواضع ـ إلى مستوى التكافؤ والتوحّد الكاملين مع الآب والـ لوجوس الذى صار الابن.

* * *

إن أفلوطين يكون أكثر إلهاما حين يقدم الرؤية الأفلاطونية كإعلان نبوءة، ويكون أقل إلهاما حين يُظهر انضباطه الفكرى الأرسطى.

* * *

ليس بين أسئلة أفلوطين الأرسطية ـ مثل "هل العقل يمكن فصله؟"، "هل الروح بسيطة أم مركّبة؟" ـ سؤال يقبل إجابة نهائية. لا إجابة على مثل هذه الأسئلة يمكن أن يقال عنها أنها صادقة أو كاذبة. فتلك الأسئلة ليست أسئلة عن وقائع فعلية.

وهذا لا يجعل تلك الأسئلة بلا معنى أو سخيفة. إنها ليست أسئلة علمية، بل فلسفية. إنها ليست أسئلة واقعية، أسئلة عن ما هو الواقع، ولكنها أسئلة عن المعنى. إنها تفتح أمامنا آفاقا من صياغات ذات مغزى يمكن أن تخلق منظومات متنوعة ذات مغزى، كل منها متسق داخليا، متماسك، ومن ثم له معنى. إنها تخلق لنا عوالمَ حِوارٍ متميّزة، حيث يمكن للعقل أن يمارس بفعالية حياته العقلانية ويتمتع بالفهم.

هذه هى ممارسة العقل الخالص، غير المتعلّقة بالوقائع الفعلية. هذا يماثل الاستمتاع بشعر الخيال المبدع سواء كان ملحميا، أو دراميا، أو غنائيا. هذا يماثل الاستمتاع بالتكوين الشكلى الخالص فى الموسيقى. هذا هو الأساس العقلانى والمبرّر للمنظومات الميتافيزيقية الكبرى، التى يُشكّل خلقها بالفعل خلقا لعوالم حقيقية، حقيقية كالعوالم التى يخلقها الله على الدوام.

وهذا هو ما أعنيه عندما أقول إن الفيلسوف لا ينشغل بالواقعى أو باكتشاف الصدق، لكنه مشغول فقط بخلق عوالم ذات مغزى ليعيش فى إبداع عاقل، ليحيا حياة العقل المبدع.

وا أسفاه! عندما يلوث فيلسوفٌ العالم الفكرى الذى خلقه بنفسه، ويلبسه واقعية زائفة، فإنه لا يرتكب إثما ضد الصدق، وإنما ضد حقيقة ذاته. وحينئذ يبادل روحه، كما فعل الملك ميداس، مقابل هيكل من الذهب الخسيس.

* * *

أُعيق أفلوطين وضعُفت فلسفته بسبب جمعه بين الأرسطية والأفلاطونية. إن ما يمتدحه البعض فى فلسفته كالتزام للعقلانية أراه أنا عيبا، أراه يُظهِر فهما خاطئا لطبيعة التفكير الفلسفى.

* * *

يقول أفلوطين عن هيراقليطس أنه "ينهمك فى المجاز ولا يهتم كثيرا بالتفسير"، ويقول عن إمبيدوقليس أنه: "يتكلم مثل شاعر"، وعن أفلاطون يقول أن "الاتساق ليس نقطته القوية". ما يقوله أفلوطين عن المفكرين الثلاثة جميعا صحيح، لكن عدم رضاه هو الذى لا مبرر له. فالشعر والمجاز وسيلتان ملائمتان للفلسفة، والاتساق الكامل فى المنظومة الفلسفية علامة على ضيق الأفق وعلى افتقاد الأصالة. أفلاطون كان شاعرا، وتحدث بالمجاز والأسطورة، وجرؤ على أن يكون غير متّسق، بالضبط لأن فلسفته كانت

عميقة، ذات امتداد مهيب، وأصيلة إلى أبعد حد. وهذا هو السبب فى أنه سوف يظل دائما أستاذا لفلاسفة أصلاء وليس لتلاميذ طيّعين.

* * *

حين يطابق أفلوطين بين الـ خير والـ واحد، فإنه لا يفارق جوهر فكر أفلاطون. أفلاطون لا يقرر هذا التطابق صراحة لأن أفلاطون ينفر دواما من حبس فكره داخل أى نطاق نظرى ثابت. لكن عندما يتحدث أفلاطون عن الـ واحد والـ متعدد، نرى أن الـ متعدد يجد حقيقته فى الـ واحد؛ وعندما نسأل: ما هو الحقيقى؟ نصل إلى فكرة الـ خير، والـ خير يلد كل الكائنات المحدّدة - أىّ الـ متعدد. عند أفلاطون كما عند أفلوطين، الـ حقيقة، الـ خير، الـ عقل الـ فاعل، الـ كلّ جميعها واحد، وكلها جميعا الـ واحد.

ما هو غير أفلاطونى فى أفلوطين ليس فى الفكر أو فى التعبير أو فى التصوير الشكلى، لكن فى حقيقة أن أفلوطين يزهو بالثوابت النظرية، أو، بتعبير أكثر كرما، بالاكتمال والتنسيق النظريين. إلا أن أفلوطين يكفّر عن هذا هذا بإصراره على أن الـ واحد لا يدرَك، لا يسبر غوره. تعبيره الفلسفى محدّد، لكن الـ حقيقة التى يعبر عنها ليست كذلك. هذا الثبات هو فى المنظومة المحددة، لكن المنظومة نفسها تعترف بأن الـ حقيقة تسمو فوق كل تحديد.

هذا سليم فلسفيا، لكنه محفوف بالمخاطر بالنسبة للغافل. لتفادى الخطر، استمتعوا بأفكار أفلوطين، شاركوه رؤاه، ولكن لا تأخذوا صياغاته بجدية أكثر من اللازم؛ لا تحولوا فلسفته إلى دين - فقد كان هذا هو ما أمات الفيثاغورسية.

* * *

يؤكد أفلوطين أن: "الوعى بالـ واحد لا يأتى إلينا عن طريق المعرفة ولا عن طريق الفكر الخالص الذى يكتشف الأشياء المعقولة الأخرى، ولكن عن طريق حضور يتجاوز المعرفة". "الحضور الذى يتجاوز المعرفة" هذا هو ما أسميه حالة المباشَرة فى تجربة حقيقتنا الروحية، أو، بصياغة أخرى، وعينا بالعقل الخلاق الذى هو حقيقتنا المميّزة.

* * *

تماما كما وجد أفلاطون أن من الضرورى أن يؤكد صراحة فى أعماله الأخيرة على ما كان دائما ضمنيا فى أعماله المبكرة، وهو، أن مفهومنا عن الحقيقة يكون ناقصا إذا لم ندرك أصالة القوة والحافز الإبداعى فى الحقيقة النهائية، كذلك أيضا كان لابد لأفلوطين أن يلجأ إلى مفهوم الـ "تولما" (الجرأة) باعتباره الحافز الذى يثمر الكون.

لكن الـ تولما الفيثاغورية ـ الأفلوطينية، إذ تلوّنت بالموقف السلبى للفيثاغوريين ولأفلوطين من العالم، نُظر إليها كمبدأ للانحطاط. أنا أُفضِّل أن أراها بعينىْ أفلاطون الأكثر تعقّلا باعتبارها الإبداع الجوهرى للـ خير.

دعونا نقول إن الـ حقيقة النهائية، الـ خير، باعتباره الـ فعل السرمدى، هو غائى، والغاية توكيد، والتوكيد هو حُبّ. الحقيقة النهائية أزل خلاق: والأزل الخلاق هو الـ فعل: والـ فعل هو الـ حب. دعونى أعترف لكم أن هذا يلخص الميتافيزيقيا التى توصلت إليها فى أوائل سنوات مراهقتى، وأنها استمرت لتكون الأساس لكل فكرى اللاحق.

* * *

يمكن النظر إلى منظومة أفلوطين باعتبارها دِين. لكنها ليست ضارة كمثل ضرر الدين لأنها مقدمة كتعبير خاص لمفكر فرد عن رؤيته لحقيقته الروحية الذاتية. الدين يصبح ضارا بمجرد أن يتمأسس. المنظومة الفلسفية أيضا تصبح ضارة عندما تضفَى عليها المرجعية والثبات. يظل أفلاطون أفضل الفلاسفة لأنك لا تستطيع أن تصبّ فكره داخل منظومة تامّة التشكيل. أفلاطون يعطينا مسائل تجتهد فيها عقولنا. إنه يعطينا مفاهيم نستكشفها ونطوّرها. وبينما الديانات والمنظومات الفلسفية التى تفتخر بكمالها النظرى تستعبِد، فإن فلسفة أفلاطون تحرِّر. وأسوأ الضرر يأتى من الأديان التى تجمع بين السلطة والقوة.

* * *

يقول أفلوطين: "القول بأنه فيما وراء الـ كينونة هناك الـ واحد، هذا حاولنا أن نثبته بقدر ما يسمح مثل هذا القول بالبرهان". وهكذا فإن أفلوطين، مثل أفلاطون، يعترف بأن المقولات الفلسفية - التعبير عن الرؤى الفلسفية - لا يمكن إقامة الدليل عليها.

وسوف يكون بلا معنى أن نقول: "لا يمكن إقامة الدليل عليها على نحو صارم" أو "لا يمكن إقامة الدليل عليها على نحو نهائى"، لأن المقولة إما أن تكون قابلة لإقامة الدليل عليها أو غير قابلة لذلك - ليس ثمة حالة وسط. إن فكرة الاحتمالية لها مكانها فيما يتعلق بالأشياء التى هى فى جوهرها عارضة، ولكن ليس فى مجال المبادئ. إن ما يسمى بـ "الأدلة" التى قدمها فلاسفة جيّدون - مثل "أدلة" أفلاطون فى محاورة فايدون - هى استكشافات لفكرة ما. وهى لا تُثبت، إنها توضح؛ إنها تعرض بالمعنى الإتيمولوجى (أو الاشتقاقى) للكلمة، أى أنها تُظهِر.

التدليل بالمعنى المنطقى الأكثر دقة ليس ممكنا إلا داخل منظومة مغلقة تبقى مفرداتها الأساسية ومبادئها الأولى غير خاضعة للتمحيص. هذه هى المنطقة الخاصة بالعلوم، وفى الأساس الرياضيات. أما الفلسفة، كما يقول أفلاطون فى الـ جمهورية، فلا يمكن أن تقف عند هذا الحد.

إن التفكير الفلسفى، لكى يكون فلسفيا على وجه الدقّة، لابد أن يهدم كل أساسياته، ليكتشف طبيعته الحقيقية كإعلان أسطورى لرؤية حقيقتنا الداخلية. هذا هو ما أعنيه حين أقول أن الفلسفة نبوءة. الفلسفة معنيّة بالأمانة ولكنها لا تدّعى الصدق؛ الدين المؤسسى يضحى بالأمانة على مذبح الاجتراء على ادّعاء الصدق.

* * *

يقول أفلوطين: "لكى تكون الكينونة، يجب ألا يكون الـ واحد كائنا بل أن يكون مُنجِب كل ما هو كائن." وأنا أقول، لكى يكون وجود المتعدّد الواقعى فى العالم معقولا، علينا أن نرى الحقيقة النهائية كـ أزل خلاق. هى أزل لأنها تتجاوز ما هو زمنى وهو أزل خلاق لأن واقعية العالم بغير ذلك تكون لامعقولة.

* * *

"لم يكن الكون أبدا بدون روح، ولا كان ثمة وقت كان فيه الجسم موجودا فى غياب الروح، أو كانت فيه المادة بلا صورة. لكن فى المناقشة يمكن أن نفكر فيهما منفصلين: فمن المشروع دائما، عندما نفكر فى أى نوع من المركبات، أن نفككها، فى التفكير، إلى أجزائها، الروح والجسم، المادة والصورة". هنا يعترف أفلوطين بوضوح بأن الحقيقة تتصل فقط بالـ كل. لكن أفلوطين كثيرا ما يبدو أنه ينسى هذا. فهو، بصفة عامة، يتكلم عند شرح آرائه وعند إقامة الحُجج عليها وكأن التمييزات الفكرية التى يقدّمها تتسم بالتمام والثبات. لغة أفلاطون أيضا توحى بذلك أحيانا. لكن أفلاطون لا يسمح أبدا لأى موقف نظرى بأن يقف ثابتا لفترة طويلة حتى يتحجر فى هيئة دوجما. مثل طفل يبنى حصونا من الرمال على شاطئ البحر، ما يكاد يصيح فى نشوة وفخر بالصرح الذى بناه، حتى يهدمه ليبدأ فى البناء من جديد. هذا هو السبب فى أن أفلاطون هو أحسن من يحرر العقل بين الفلاسفة.

أفلوطين معرض للخطأ أيضا فى أنه عندما يقدم حكاياته الخيالية عن كيف أصبحت الأشياء كائنة وعن علاقات مختلف القوى، والمبادئ، وأوجه الكينونة، يأخذ حكايته الخاصة وكأنها تقرير عن واقع. أفلاطون روى أساطير، وأسماها أساطير، وعندما كان يؤكد أن هذه الأساطير تنطوى على رؤية صادقة لم يُخضع هذه الرؤية أبدا للقيود والحدود؛ تركنا أحرارا نتلقّى تلك الرؤى كتجربة معاشة. دعونى أذكركم مرة أخرى عند هذه النقطة بأننى عندما أتحدث عن أساطير افلاطون فإننى لا أشير أساسا إلى حكاياته المعروفة جيدا فى محاورات فايدون، وفايدروس، وجورجياس، والـ جمهورية، أو الـ بوليتيكوس، وإنما أشير إلى كل صياغاته المفهومية والنظرية.

لم يترك أفلاطون لنا فلسفة: يخطئ خطأ جسيما فى حقّ أفلاطون أولئك الذين يسعون لأن ينسبوا إليه منظومة تامة. لقد أعطانا أفلاطون ما هو أكثر أهمية إلى أبعد حد: لقد أهدانا هبة التفلسف. قدّم أفلوطين رؤى أفلاطون فى تصورات شكلية وتكوينات فكرية جميلة وملهِمة. لكننا نخطئ كثيرا لو توقفنا عند تصورات أفلوطين وأنساقه الفكرية، وسمحنا لها أن تحول بيننا وبين الينابيع الحية لأفلاطون. إننا نكون

أكثر تكريما لأفلوطين عندما نتركه يأخذنا عائدين إلى إيعازات أفلاطون الملهِمة، وإلى ما وراء ذلك، إلى جهل سقراط الفلسفى.

* * *

يقول أفلوطين إن الروح "تستخدم التفكير عندما تكون غير متيقنة، عندما تكون مليئة بالتشتت، وخاصة عندما تكون قد ضعفت لأن الحاجة إلى التفكير ناتجة عن ضعف فاعلية العقل، الذى يصبح غير كافٍ بذاته. التفكير يتدخل فى البراعة الحِرَفية عندما يقابل الحرفى صعوبات؛ عندما لا تكون ثمة صعوبات تمضى البراعة الحرفية بقوتها الخاصة". هذا القول يتسم ببصر نافذ عميق. فى كل عمل خلاق، فى الشعر، فى التفلسف، فى التأليف الموسيقى، أو مجرد ترك مشاعرنا تتدفق بعفوية فى أغنية، فى إيماءة حب تلقائية، فى فعل يتسم بالخير، أو فى عمل بطولى؛ فى كل هذا، عندما تكون الطبيعة البشرية فى أفضل أحوالها وأنبلها وأكثرها حرية، لا نفكر، لكنْ - دعونى أتجنب التحديد بأكثر مما يلزم - شىء ما فى داخلنا يتدفّق فى تعبير عفوى - القصيدة، الفكرة، الأغنية، الإيماءة، الفعل، كلها إزهار لحقيقتنا الداخلية. هذا ما أعنيه عندما أقدم مبدأ الإبداع كملمح نهائى للحقيقة.

وفى هذا أجد أيضا الحل للغز الإرادة الحرة. إذا كانت كل الأحداث، بما فيها الفعل الإنسانى، تخضع لمبدأ الكفاية السببية، إذا كانت كل حالات الكينونة التى تصير كائنة تنبثق من سابقاتها، كيف يتوافق هذا مع الحرية الإنسانية؟ إجابتى باختصار هى: كل صيرورة خلاقة؛ الإبداع حرية؛ النشاط الإنسانى فى أفضل وأحسن أحواله يتوافق تماما مع مبدأ الكفاية السببية ومع الحرية. لا حدث، ولا حتى أتفه الأحداث العادية وأكثرها ابتذالا، تحدّده سالفاته قسرا وبضرورة جبرية؛ إلا أن كل الأحداث، أكثرها اتضاعا وأعظمها سموّا، تستجيب لسابقاتها، تحقق سابقاتها إبداعيا، هى إزهار لسابقاتها - اختاروا المجاز الذى يعجبكم، إنها كلها صادقة بنفس القدر وقاصرة بنفس القدر. أولئك الذين يجدون مشكلة فى هذا يخلطون بين الحرية وبين

التدبّر والاختيار. إننا نفكر، ونتدبّر، ونختار، عندما تكون عناصر الحالة متجاوزة لنا، عندما نكون نحن وفعلنا مجرد عامل بين عوامل أخرى للحالة. عندئذ لا نكون أحرارا حقا؛ وبهذا المعنى نحن لسنا أبدا أحرارا حقا. إننا أحرار عندما يكون فعلنا متدفقا من حقيقتنا الداخلية.

* * *

المصادر

انظر "مقدمة وشكر" للاطلاع على المصادر الرئيسية عن حياة هيپاتيا وعن أسطورة إيزيس وأوزيريس.

"محاضرات" هيپاتيا عن الـ پارمنيدس

فى الأقسام الأربعة الأولى من كتاب مريم (التى تتناول محاورة پارمنيدس لأفلاطون)، استخدمت الفصل الثامن من كتابى *Plato: An Interpretation (2005)*، مع بعض الحذف والقليل من التعديلات الطفيفة.

الاستشهادات من أفلاطون

مقولة أفلاطون: "ذلك الذى يرى الأشياء ككُلّ يكون فلسفيا، ومن لا يراها كذلك فليس كذلك"، والمقتبسة مرتين (ص ٣٣، ص ٩٨) من الـ جمهورية **537-c**

فقرات مقتبسة من تاسوعات أفلوطين Enneads of Plotinus

بالنسبة للاقتباسات من تاسوعات أفلوطين استخدمت ترجمة **Elmer O'Brien, S.J., in *The Essential Plotinus* (1964)**. وفى المراجع التالية، يشير الرقم الرومانى والرقمان التاليان إلى أرقام التاسوعات، والرسالة، والقسم، بالترتيب. وتشير الأرقام بين الأقواس إلى رقم الصفحة فى طبعة **Mentor Book** لكتاب ***The Essential Plotinus,*** **First Printing, April, 1964**

"الأبدان تمنعها أبدانها من الاتحاد، لكن ما لا جسد له لا تمسكه هذه الحدود الجسدية.. إن ما يفصل الكائنات اللابدنية الواحد عن الآخر ليس المسافة المكانية، بل اختلافاتها وتنوعاتها: فعندما لا يكون هناك فرق بينها، تكون موجودة بشكل متبادل".
VI.9.9 (p.85).

"الحياة هنا بأسفل وسط موضوعات الحِس، هى للروح، انحطاط، غُربة، فقدان للأجنحة". VI.9.9 (p.85).

"عين لم تصبح مماثلة للشمس لن يتاح لها أبدا أن تبصر الشمس؛ ولا عين ليست جميلة سوف تبصر الـ جمال. ليكن إذن إلهيا وجميلا من يريد أن يتأمّل الإلهى والجميل." 1.6.9(p.43).

"الوعى بالـ واحد لا يأتى إلينا عن طريق المعرفة ولا عن طريق الفكر الخالص الذى يكتشف الأشياء المعقولة الأخرى، ولكن عن طريق حضور يتجاوز المعرفة". VI.9.4 (p.78).

"القول بأن فيما وراء الـ كينونة هناك الـ واحد، هذا حاولنا أن نثبته بقدر ما يسمح مثل هذا القول بالبرهان". V. 1.10 (p. 102).

"لكى تكون الكينونة، يجب ألا يكون الـ واحد كائنا بل أن يكون مُنجِب كل ما هو كائن." V.2.1 (p. 107).

"لم يكن الكون أبدا بدون روح، ولا كان ثمة وقت كان فيه الجسم موجودا فى غياب الروح، أو كانت فيه المادة بلا صورة. لكن فى المناقشة يمكن أن نفكر فيهما منفصلين: فمن المشروع دائما، عندما نفكر فى أى نوع من المركبات، أن نفككها، فى التفكير، إلى أجزائها، الروح والجسم، المادة والصورة". IV.3.9(p.I37).

الروح "تستخدم التفكير عندما تكون غير متيقنة، عندما تكون مليئة بالتشتت، وخاصة عندما تكون قد ضعفت لأن الحاجة إلى التفكير ناتجة عن ضعف فاعلية العقل، الذى يصبح غير كافٍ بذاته. التفكير يتدخل فى البراعة الحِرَفية عندما يقابل الحرفى صعوبات؛ عندما لا تكون ثمة صعوبات تمضى البراعة الحرفية بقوتها الخاصة". IV.3.18 (p. 145).

بالنسبة لملاحظات أفلوطين حول هيراقليطس وإمبيدوقليس، وأفلاطون، فإننى مدين لتعليقات أوبريان O'Brien ص٥٩ .

مفارقة تاريخية؟

"الجمال هو الصدق والصدق هو الجمال". في *Socrates' Prison Journal* (2005) تعمّدت تقديم العديد من المفارقات التاريخية. في العمل الحالي كنت حريصا على تجنب المفارقات التاريخية. ومع ذلك، فقد خطر لي أنه لا ضرر من تبني كلمات كيتس الملهمة هنا، حيث أن الفكرة التي تعبر عنها كان من الممكن جدا أن تكون قد خطرت لهيپاتيا.

استشهادات من الإنجيل

"لأن كل من له يُعطى فيزداد ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه". متى ٢٥: ٢٩

"ليس ما يدخل الفم يُنجِس الإنسان. بل ما يخرج من الفم هذا يُنجِس الأنسان". متى ١٥: ١١

"وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه". متى ٥: ٢٨.

البورتريه المتخيل لهيپاتيا

البورتريه المتخيل لهيپاتيا المنشور على الغلاف أدين به لموقع الإنترنت:
www.astr.ua.edu/4000WS/HYPATIA.html

المؤلف فى سطور

داوود روفائيل خشبة

ولد عام ١٩٢٧ فى السودان لأبوين مصريين .

- صدر كتابه الأول "دعوة للفلسفة" باللغة الإنجليزية عام ١٩٩٨ .

- أصدر بعد ذلك باللغة الإنجليزية أيضًا : "أفلاطون : رؤية" عام ٢٠٠٥ "يوميات سقراط فى السجن" عام ٢٠٠٦، "هيپاتيا والحب الذى كان" عام ٢٠٠٦ أيضًا ، الطبعة الثانية من "دعوة للفلسفة" عام ٢٠٠٨ ، و"أبو الهول والعنقاء" عام ٢٠٠٩ .

- نشـر العديد من المقالات فى عدد من الدوريات الفلسـفيـة والمواقع الفلسـفيـة الإلكترونية، جمع أكثرها فى "أبو الهول والعنقاء" .

- ستصدر الترجمة العربية للكتب الخمس تباعًا عن المركز القومى للترجمة .

- المؤلف أرمل، له ابنة وحيدة وحفيدة واحدة، ويقيم بمدينة السادس من أكتوبر .

المترجمة فى سطور

سحر توفيق

أدبية ومترجمة ، لها العديد من الكتب المؤلفة والمترجمة والمراجعات .

من مؤلفاتها : أن تنحدر الشمس (مجموعة قصصية ، ١٩٨٢)؛ طعم الزيتون (رواية ٢٠٠٠) ؛ رحلة السمان (رواية ٢٠٠٢)؛ بيت العانس (مجموعة قصصية، ٢٠٠٤) .

من ترجماتها : فلاحو الباشا (تأليف كينيث كونو، ٢٠٠٠) ، أرض الحبايب بعيدة : بيرم التونسى (ماريلين بوث، ٢٠٠٢) ؛ امرأة محاربة (ماكسين هونج كنجستون ، ٢٠٠٥) ؛ كريك وأوريكس (مارجريت أتوود ، ٢٠٠٧) ؛ الهوية والعنف : وهم المصير الحتمى (أمارتيا صن ، ٢٠٠٨) ؛ شهيرات النساء : أدب التراجم وسياسات النوع فى مصر (ماريلين بوث ، ٢٠٠٩) ؛ الطريق الطويل (إسماعيل بيه ، ٢٠٠٩) .

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حســـــن كامــل



يروى الكتاب فى قالب روائى الأيام الأخيرة من حياة هيباتيا، الفيلسوفة السكندرية التى اغتيلت بطريقة وحشية فى عام 415 م. فيما يتعلّق بالوقائع المحققة يلتزم الكتاب الأمانة التاريخية، أما قصة الحب التخيلية فيعالجها المؤلف فى إيماءات، يرسمها بلمسات خفيفة، من خلال ومضات من الذكرى تستثيرها أحداث فى قصتَىْ حب حزينتين لاثنتين من تلميذات هيباتيا. وتلى القصة المأساوية، فى القسم الثانى من الكتاب، مجموعة من مقتطفات تخيلية من محاضرات وأحاديث الفيلسوفة. والفلسفة التى تتضمنها هذه المحاضرات والأحاديث التخيلية هى، صراحةً، للمؤلف، ويتأتى هذا بالضرورة لكوننا قد فقدنا كل أعمال هيباتيا الفلسفية، بفضل الكنيسة التى عملت على إبادة هذه المؤلفات تماما. وإذا كان التصوير الحى للمأساة الدامية لـ هيباتيا سيقابل بالغضب من بعض الجهات، فإن المؤلف لا يجد مبررا للاعتذار، ذلك أن تلك الجريمة الوحشية البشعة هى بمثابة جرح غائر فى ضمير الإنسانية، يجب أن نظل نحسه نابضا بالألم إذا لم نُرِد له أن يقيح فيسمّم جسم الإنسانية بكامله.

تصميم الغلاف: نسرين كشك